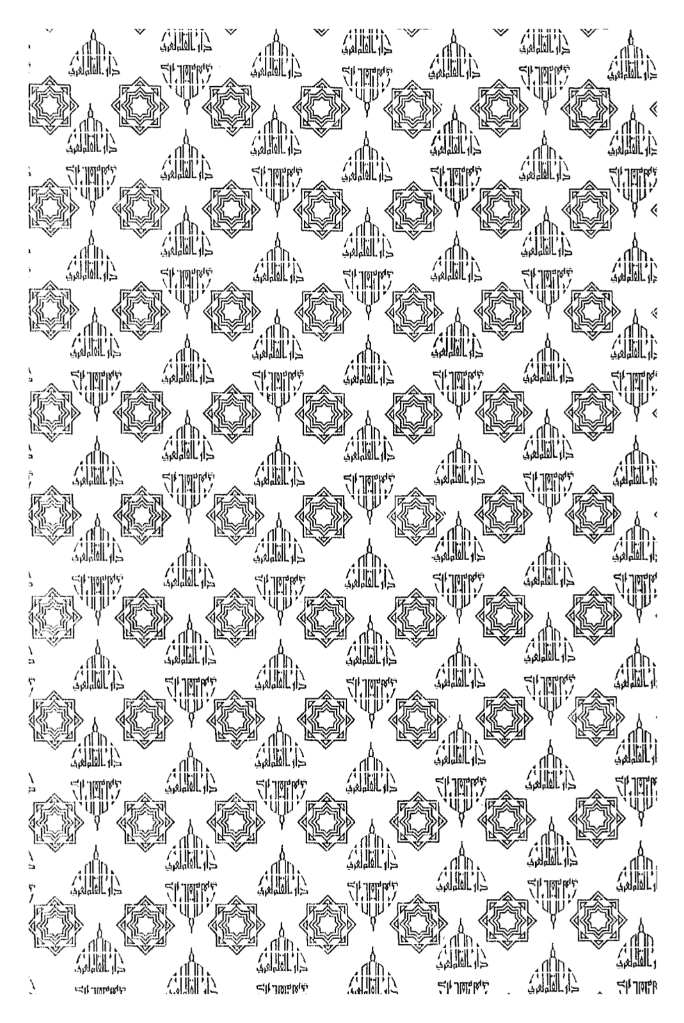
معارك عربية إسلامية خالدة

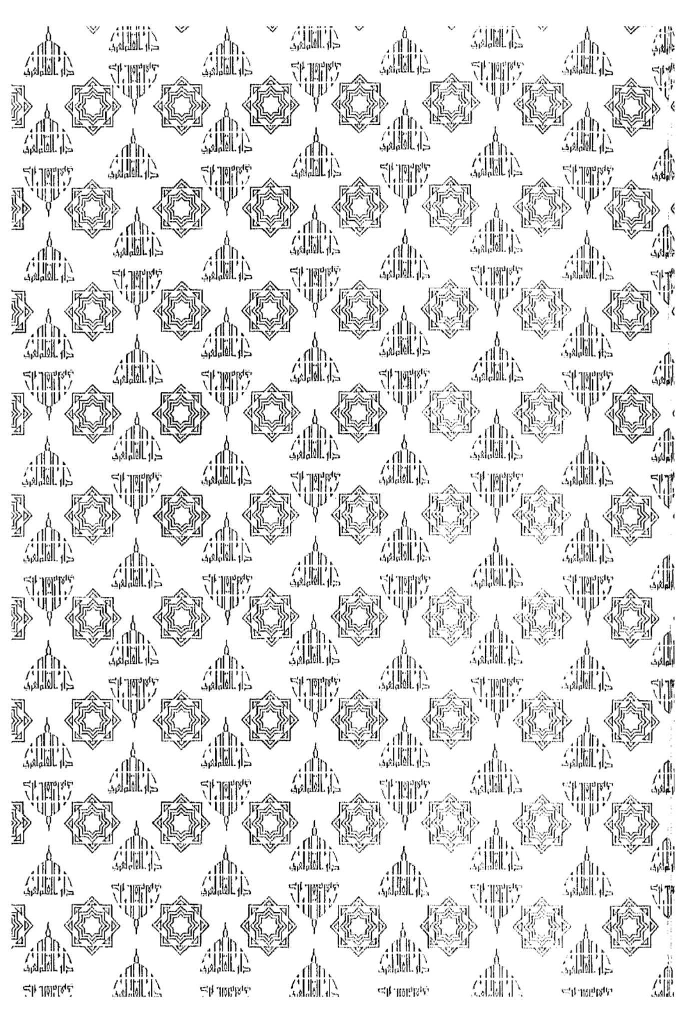
١٥ - معركة العمورية

١٦ - معركة الزلاقة



دار القلم العربي


دار القلم العربي



معارك عربية خالدة

١٥

معركة عمورية

إعداد

عبد القادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب : 78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

معركة عمورية

معركةُ عموريةَ من المعاركِ الإسلاميةِ الخـــالدةِ التـــي مَلأَتْ صفحاتِ تراثـــِنا العربي والإسلامي العريـــقِ وتاريخنـــا الناصعِ المشرقِ المجيدِ .

إنها تُعتَبَرُ بحقٍ مفخرةً من مفاخِرِ المسلمين ويوماً مـــن أيامِهِمُ الخالدةِ .

إنها تحكي قصةَ الثأرِ والشرفِ ، وتروي حكايةَ البطولـــةِ والعزةِ والفخارِ ، يومَ انتفضَ الأسدُ من عرينِـــهِ وصحـــا مـــن كبوتِهِ حين أحسّ بجرحِ كرامتِهِ وفقدِ هيبتِهِ والاعتـــــداءِ علـــى محارمِه ، وما قيمةُ الإنسانِ حين يفقدُ هذه العناصرَ الهامةَ مـــن شخصيتِهِ . . . !! وما قيمةُ الإنسانِ حين يصبـــحُ بـــلا كرامـــةٍ ولاهيبـــةٍ ولاشرفٍ ، إنّ الإنسان يرفضُ هذا ويثورُ عليـــه أيّـــاً كان لونه أو جنسُـــهُ أو هويتُهُ ، فكيف إذا كـــان مسـلماً يعـــتزُ بانتمائهِ إلى الإسلامِ ويفخرِ بانتسابِهِ لأمةٍ ما عرفـــت إلا العـــزةَ والنخوةَ والشموخَ والإباءَ . . . !

يايومَ وقعةِ عموريةَ انصَرَفَتْ   منكَ المنى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ

ترجمةُ المعتصمِ

قبل الخوضِ في تفاصيلِ معركةِ عموريةَ لا بدّ لنا مـــن الرجوعِ إلي ذكر شيءٍ من ترجمةِ الخليفةِ المعتصمِ لأنـــه بطـــلُ هذه المعركةِ الخالدةِ ، وهو الذي أبلى فيها البلاءَ الحسنَ ، ورفَعَ شأنَ العربِ والمسلمين وأظهر فيـــها مـــن البطولـــةِ والنخـــوةِ والشهامةِ ما يدعو إلى الفخرِ والاعتزازِ ، ويجعلُ كـــلَّ عربّـــي ومسلمٍ يرفعُ رأسهُ عالياً حتى يبلغَ الشمسَ ويلامسَ السماءَ فـــي عزةٍ وإباءٍ وشموخٍ .

تدبيرُ معتصمٍ باللهِ منتقمٍ للهِ مرتقب في اللهِ مرتغِبِ

اسمُهُ ونسبُهُ:

هو أميرُ المؤمنـــين محمـــدُ المعتصـــمُ بـــنُ أمـــير المؤمنـــين هارونَ الرشيـــدِ بنِ المهـــدين بنِ المنصورِ العباســـي ، نسبةً إلي سيـــدِنا العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ عَمّ النبي صلـــى الله عليه وسلم .

لقبُهَ وكنيتُه:

يكنى المعتصمُ بأبي إسحاق ، ويُلَقّبُ بالمثّمِنِ قال ابـــنُ كثيرٍ: يُقالُ له المثّمِنُ لأنه ثامنُ ولدِ العبـــاسِ ، وأنـــه ثـــامنُ الخلفاءِ من ذريتِهِ ، ومنها أنه فتح ثماني فتـــوحاتٍ ومنـــها أنـــه أقـــام في الخلافـــةِ ثمانيَ سنينَ وثمانيةَ أشـــهرٍ وثمانيـــةَ أيـــامٍ وقيل: يومين .

وأنهُ وُلِدَ سنةِ ثمانين ومائةٍ في شعبانَ وهو الشهرُ الثامنُ من السنةِ .

وأنه توفيَ وله من العمرِ ثمانيةٌ وأربعون سنةً .

ومنها أنه خلّفَ ثمانيةَ بنينَ وثمانيَ بناتٍ .

ومنها أنه دخل بغدادَ من الشامِ في مستهلِ رمضانَ سنة ثمانِ عشرةَ ومائتين بعد استكمالِ ثمانيةِ أشهرٍ من السنةِ بعد موتِ أخيه المأمون .[1]

مولدُه:

وُلِدَ المعتصمُ يومَ الاثنين لعشرٍ خلونَ من شعبانَ سنةَ ثمانين ومائةٍ ، ووليَ الخلافة في رجبَ سنةَ ومائتين ، وهو أحدُ أولادِ ستةٍ من أولادِ الرشيد كلٌ منهمُ اسمُهُ محمدٌ وهم : أبو إسحاقَ محمدُ المعتصمُ ، وأبو العباسِ محمدٌ الأمينُ ومحمدٌ أبو يعقوبَ ومحمدٌ أبو عيسى ، ومحمدٌ أبو علي[2] .

صفته:

كان المعتصمُ أبيضَ الوجهِ ، أصهب[3] اللحيةِ مربوعاً مُترَبَ اللونِ حمرةً ، أحسَنَ العينينِ واسعَهُما .

(١-٢) البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) أصهبُ اللحية : أحمرُها ، والصهبة: أن يعلوَ الشعر حمرةٌ

قال ابنُ الأثير: ذُكِرَ عن أحمدَ بنِ أبي دؤادَ[1] أنه ذكـــر المعتصمَ فأسهَبَ في ذكرِهِ ، وأكثَرَ من طيبِ أعرافِـــهِ ، وســعةِ أخلاقِهِ وكريمِ عشرتِهِ .

قال: وقال يوماً ونحن بعموريةَ!: ما تقولُ في العُبسْرِ[2] يا أبا عبدِ الله ...؟

فقلتُ: يا أمير المؤمنين ، نحن ببلادِ الــرومِ والعُبسْــرُ بالعراق .

فقال: قد جاء وامته بشيءٍ من بغـــدادَ ، وعلمــتُ أنــكَ تشتهيهِ ، ثم أحضَرَهُ ، فمدَّ يَدهُ فأخذ العَــذْقَ[3] فارغــاً ، قــال: وكنتُ أزاملُهُ كثيراً في سفرِهِ ذلك .

قال: وأخذتُ لأهلِ الشاشِ[4] منه ألفَي ألفَ درهمٍ لعملِ نهرٍ كــان لهمُ اندفَنَ في صدرِ الإسلامِ ، فأضَرَّ بهم .

وقــال غــيُرُه: إنـــه كـــان لا يبــالي إذا غضـــب مـــن قتـــل

(١) هو قاضي المعتصم ، وكان رأس الأفعى في فتنة المعتزلة التـــي تقول بخلق القرآن واقتنع بها المأمون الذي قرب ابن أبي دؤاد وجعله على رأس حملة الناس بها في عهده ، وكذا في عهد المعتصم والواثق حتى أوقفها المتوكل ومنع القول بها وعاد إلى قول أهل السنة .

(٢) العبسر : التمر قبل أن يرطب لعغنافتِهِ

(٣) العذق: كل غصن له شُعَبٌ ، وقيل: النخلة يحملها .

(٤) الشاش: مدينة بما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. انظـــر معجم البلدان .

وما فعل بهم ولم يكنْ له لذةٌ في تزيينِ البناءِ ، ولم يكنْ بالنفقةِ أسمحَ منه في الحربِ[1] .

صفاتُهُ الجسديةُ:

كان المعتصمُ ذا بأسٍ شديدٍ في نفسِهِ ، وشجاعةٍ فائقةٍ في قلبِهِ ، وقوةٍ خارقةٍ في جسدِهِ ، ذكر منه أصحابُ التاريخِ والتراجمِ أشياءَ كثيرةً منها: ما روي عن أحمدَ بنِ أبي دؤادٍ أنه قال: ربما أخرج المعتصمُ مساعدَهُ اليَّ وقال لي: عُضَّ يا أبا عبدِ الله بكلِ مل تقدرُ عليه ، فأقولُ: إنه تطيبُ نفسي يا أميرَ المؤمنين أن أعضَّ ساعدَكَ.

فيقولُ: إنه لا يضرني ، فأكدِمُ[2] بكلِ ما أقدرُ عليه فلا يؤثرُ ذلك في يدِهِ .

وقَرَّ يوماً في خلافةِ أخيه بمخيَّمٍ فإذا امرأةٌ تقولُ: ابني... ابني .

فقال لها: ما شأنُكِ ...؟

فقالَتِ: ابني أخذه صاحبُ هذه الخيمةِ .

فجاء اليه المعتصمُ فقال له: أطلِقْ هذا الصبيَّ .

---

(١) الكامل في التاريخ .

(٢) كدَمَ: عَضَّ بأدنى فمه .

فامتَنَعَ عليه ، فقبض المعتصمُ على جسدِهِ بيــدِهِ فسُــمِعَ صوتُ عظامِهِ من تحتِ يدِهِ ، ثم أرسلَهُ ، فســقط ميتــاً وأمــر بإخراج الصبي الى أمِهِ .

ولمّا ولِيَ الخلافةَ كان شهماً وله همةٌ عاليةٌ في الحــربِ ومهابةٌ عظيمةٌ في القلوبِ ، وإنما كانت مهمتُهُ في الإنفاقِ فــي الحربِ لا في البناءِ ولا في غيرِهِ[1] .

ورويَ أن ملكَ الرومِ كتب إليه كتاباً يتهدَّدُهُ فيه ، فقال للكاتبِ: أكتبْ: قد قرأتُ كتابَكَ ، وفهمتُ خطابَكَ والجوابُ ما ترى لا ما تسمعُ ، وسيعلمُ الكفارُ لِمَنْ عقبى الدار[2] .

أخلاقُــهُ:

روي عن أخلاقِهِ وحُسْنِ شمائِلِهِ وتواضُعِهِ أشياءُ كثــيرةٌ منها: ماذكره ابنُ الأثيرِ قال: قال اسحاقُ بنُ المُصْعَبيُّ: دعــاني المعتصمُ يوماً فدخلتُ عليه فقال: أحببـــتُ أنْ أضــربَ معــك بالصوالجة[3]، فلعبنا بها ساعةً ، ثم نزل وأخذ بيدي نمشي إلــي أن صار حجرةِ الحمّامِ فقال: خذ ثيابي ، فأخذتُها ، ثــم أمرنــي بنزعِ ثيابي ، ففلتُ ودخلتُ ولبس معنا غلامٌ ، فقمتُ إليه فخدمتُهُ

(١-٢) البداية والنهاية .

(٣) الصوالجة: جمع صويج ، وهو العود المموج والصولجان: عصاً يعُطَفُ طرفُها يضربُ بها الدواب .

ودلّكتُهُ ، وتولّى المعتصمُ مني مثلَ ذلك ، فاستفيتُهُ فأبى عليَّ ،ثم خرجنا ومشى وأنا معه ، حتى صار إلى مجلسِهِ ، فنام وأمرني فنمتُ حذاءَهُ بعد الامتناع .

ثم قال لي: يا إسحاقُ ، إنّ في قلبي أمراً أنا مفكرٌ فيه منذُ مدةٍ طويلةٍ ، وإنما بسطتُك في هذا الوقتِ لأفشيَهُ إليكَ .

فقلتُ: قلْ يا أميرَ المؤمنين ، فإنما أنا عبدُك وابنُ عبدِك.

قال: نظرتُ إلى أخي المأمونِ وقد اصطنع أربعةً فأفلحوا جميعُهم ، وأنا قدِ اصطنعتُ أربعةً فلم يفلحْ أحد منهم .

قلتُ: ومَنِ الذين اصطنعَهُمُ المأمونُ...؟

قال: طاهرُ بنُ الحسينِ فقد رأيتَ وسمعتَ ، وابنُهُ عبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ ، فهو الرجلُ الذي لم يُرَ مثلُهُ ، وأنتَ فأنتَ واللهِ الرجلُ الذي لايعترضُ السلطانُ عنكَ أبداً وأخوكَ محمدُ بنُ إبراهيمَ ، وأين مثلُ محمدٍ...؟؟

وأنا فاصطنعتُ الأفشينَ ، فقد رأيتَ إلى ما صار أمرُهُ وأشناسَ ففشِلَ ، وإيتاخَ فلا شيئَ ، ووصيفاً فلا معنى فيه[1] .

---

(١) سوف نقف على ذكر هؤلاء ، ونطلع على دور كل منهم .

فقلتُ: أحبيبُ على أمانٍ من غضبِك...؟

قال: نعم .

قلتُ له: يا أميرَ المؤمنين ، نظر أخوك إلى الأصولِ فاستعمَلها ، فأنجَبتْ واستعمل أميرُ المؤمنين فروعاً ، فلم تنجبْ إذ لا أصول لها .

فقال: يا إسحاقُ ، لمقاساةُ ما مَرَّ بي طولَ هذه المدةِ أيسرُ عليَّ من هذا الجوابِ .

وحُكيَ أن المعتصمَ قدِ انقطعَ عن أصحابِهِ في يومِ مطرٍ ، فبينما هو يسيرُ رحلَهُ إذ رأى شيخاً معه حمارٌ عليه حملُ شوكٍ ، وقد زلق الحمارُ وسقط ، والشيخ قائمُ ينتظرُ مَنْ يمرُ به فيعينُهُ على حملِهِ .

فسألهُ المعتصمُ عن حالِهِ ، فأخبرَهُ ، فنزل عن دابتِهِ ليخلصَ الحمارَ عن الوحلِ ، ويرفعَ عليه حملَهُ .

فقال له الشيخُ: بأبي أنتَ وأمي لاتبلّلْ ثيابَكَ وطيبَكَ .

فقال له: لاعليكَ ، ثم إنه خلَّصَ الحمارَ ، وجَعَلَ الشوكَ عليه وغسل يديه ، ثم ركب ، فقال الشيخُ: غفر اللهُ لك ياشاب ... !

ثم لحقَهُ أصحابُهُ ، فأمر له بأربعةِ آلافِ درهمٍ ، ووكَّلَ به من يسيرُ معه إليه ببيتِهِ[١] .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير .

خلافتـــه:

بويع للمعتصم بالخلافة يوم مات أخوه المـــأمون وذلـــك يوم الخميس الثاني عشر من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين .
وكان قد سعى بعض الناس ومنهم الأمراء والمستولون في إمارة العباس بن المأمون ، فرفض العباس ذلك ، وقال لهم: ما هـــذا الخلف البارد...؟

أنا قد بايعت عمي المعتصم .

فسلف الناس ، وخمدت الفتنة . وبويع المعتصم خليفـــة للمأمون ، وأصبح من تلك اللحظة أمير المؤمنين وجعل النـــاس يطوفون البلاد يحملون نعي المأمون وبيعة المعتصم .
حدث هذا كله بطرسوس[١] ، وهي المدينة التي توفي فيها الخليفة المأمون ، ثم ركب المعتصم وأمر الناس بـــالعودة الـــى بغـــداد وصحبه العباس بن المأمون في موكب عظيم ، وجمـــع غفـــير وحشد كبير وأبهة لا مثيل لها .

وفي صبيحة يوم السبت في الأول من شـــهر رمضـــان المبارك دخل المعتصم بغداد في أبهة عظيمة ، وتجمل تام ليبـــدأ بذلك صفحة جديدة ونمطا مختلفا من أنماط حياته .

---

(١) طرسوس: مدينة تيفور الشام بين إنطاكية وحلب وبلاد الروم ، انظر معجم البلادان: وهي اليوم تابعة لتركيا .

حروب المعتصم

لم يكد المعتصم يعتلي عرش الخلافة ، وبتسلم مقاليد الحكم حتى بدأت الأحداث المزعجة، والفتن المؤلمة تزعجه وتقلقه وتزلزل أركان دولته .

في هذه الظروف المؤلمة ، والفتن الكثيرة المتلاحقة استقبل أبو إسحاق المعتصم فجر خلافته ولكن لابأس عليه فهو لها أهل وبها جدير، وهو الخليفة المؤمن ذو البطش والقوة والمهابة العظيمة ، والنخوة الشديدة ، والشهامة الإسلامية والمروءة العربية والهمة العالية ، وهو الفارس القوي المدرب والشجاع الذي يحسب له ألف حساب ، والبطل الذي امتشق حسامه منذ طفولته وصباه مدربا في أحضان أبيه الرشيد وفي خلافة أخويه الأمين والمأمون ، وهو شاب يفيض قوة وحيوية ونشاطا لو وزعت على أمة لكفتها ومن كان كذلك لم يخش الأحداث والفتن ولا المشاكل والمحن مهما عظمت وتكاثرت ومهما يكن أهلها ودعاتها أولي قوة ، وأولي بأس شديد ، ومهما يكن عددهم وعدتهم ولذلك جعل المعتصم العلاج في الحزم وترك الحكم للسيف ، ولسوف نرى بيان ذلك متسلسلا.

أولا: حروب الزلي .

وهم قوم يعتنقون عقيدة فاسدة ، ويحملون أخلاقا قاسية يبغون الشر والفتنة ، ويحبون القتل والسلب والنهب ، وكان

القائمُ بأمرِهِم والمسؤول عنهم رجلٌ يقالُ له: محمدٌ بنُ عثمـــــان ومعه آخرُ يقالُ له: سماق ، وكلٌ منهما داهيةٌ فاجرٌ، وشــــيطانٌ ماكرٌ، فجاسوا خلالَ الديارِ وعاثوا في الأرضِ الفسادَ ، وقطعـوا الطرقات،ونهبوا الغَلاتِ، وخلّفوا وراءَهُمُ الكـــوارثَ والويــلات فبعث إليهمُ المعتصمُ عُجَيفَ بن عنيسةَ لحربِهم،وإخمادِ ثورتِهِم .

فسار عُجَيفٌ حتى عسكرَ بواسط[1]، وأقام على نهرٍ يقالُ له بردودا ، وأخذ عليهمُ الطرق ، وسدَّ عليهم المســـالكَ ، ثـم انقضَّ عليهم وقاتلهم قتالاً شديداً قتل منهم في معركـــةٍ واحـدةٍ ثلاثمائةِ رجلٍ ، وأسَرَ خمسمائةٍ آخريـــن ضـــرب أعنـــاقهم جميعـــاً وبعث برؤوسهم إلى الخليفةِ المعتصمِ ، وأقام عُجَيـــفٌ بإزائِهِم سبعةَ أشهر يغيرُ عليهم ، ويحاربُـــهم باســـتمرارٍ حتـــى قضى عليهم وكسر شوكتَهم وأسر منهم سبعةً وعشرينَ ألفاً جـاء يقودُهم إلى بغداد ، وقد حملهم في السفن ، فأنزلوا في الجـــانبِ الشرقي ، فأمر المعتصمُ بنفيهم إلى رومةَ فأغـــارَتْ عليـــهمُ الرومُ فإجتاحوهم عن أخرهم ولم يفلِتْ منهم أحد .

قال ابنُ كثير في البدايةِ والنهايةِ: فكان آخرَ العهدِ بهم .

---

(١) واسط: في عدة مواضع ولعل المراد كما قال أبو حاتم: واســـط بالجزيرة فهي مقابل الرقة أو التي بقرقيسيا ، أو غيرهـــا.. انظــر معجم البلدان .

ثانيا: حروب بابك الخرمي .

قبل الحديث عن الحـــروب التـــي دارت بيـــن الخليفـــة المعتصم وبابك الخرمي ينبغي أن نلقي الضوء على هذا الأخـــير ومذهبه للوقوف على عقيدته وفساد مذهبه.

مـــذهبــــه .

يقوم مذهب بابك على الإباحة ، وهو المذهب المســـمى (بالخرمية) ، وأتباعه صنفان:

صنف : منهم كانوا قبل دولة الإسلام كالمزدكية نســـبة إلى (مزدك) وكان هؤلاء يستبيحون المحرمات ويزعمـــون أن الناس شركاء في الأموال والنساء ودامت فتنة هـــؤلاء الـــى أن قتلهم أبو شردان في زمانه .

الصنف الثاني: الخرمدينية ، وهؤلاء ظهروا في دولـــة الإسلام ، وهم فريقان: بابلية نسبة إلى بابك المذكور ومازيارية وكلتاهما معروفة بالمحمرة .

فالبابلية منهم: أتباع بابك الخرمي الذي ظهر في جبـــل البدين بناحية أذربيجان وكثر بها أتباعه ،فاستباحوا المحرمـــات وقتلوا الكثير من المسلمين ، فجهز إليه خلفاء بني العباس جيوشا كثيرة.. كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

وأما المازيارية منهم ، فهم أتباع مازيار الذي بن المحمرة بجرجان[1] وكانت فتنة مازيار قد عظمت في ناحيته إلى أن قبض عليه في أيام المعتصم كما سيأتي .

واتباع مازيار كانوا منتشرين في الجبال من سواد جرجان وعقيدتهم إظهار الإسلام ، وإضمار خلافه ، والله المستعان على أهل الزيف والضلال .

وللبابلية في جبلهم ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر، وتختلاط فيها رجالهم ونساؤهم فإذا أطفئت سروجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال والنساء على تقدير من عزبز.

وهم ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم في الجاهلية اسمه (شردين) ويزعمون أن أباه كان من الزنج ، وأمه بعض بنات ملوك الفرس .

ويزعمون أن شردين كان أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم ومن سائر الأنبياء ، وقد بنوا في جبلهم مساجد يؤذن فيها المسلمون ، وهم يعلمون أولادهم القرآن ، لكنهم لا يصلون

---

(١) جرجان: مدينة عظيمة مشهورة بين طراسان وخراسان . قيل : أول من أحدث بناءها يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة. انظر معجم البلدان .

في السر ، ولا يصومون في شهر رمضان ولا يـــرون جـــهاد الكفرة[١].

---

(١) الكفرة: انظر الفرق بين الفرق .

من هو بابَكُ الخرّميُّ..؟

بابَكَ: رجلٌ فارسيٌ مجوسيٌ الأصل ، دخـــل فـــي الإسلام ، وسّمىَ الحسنَ ، وقيل: الحسين، وكان قـــويَّ النفـــس شديدَ البطشِ، صعبَ المراس ، وكان قد حدثـتْهُ نفسُهُ الخبيثـةُ باسترجاعِ ملكِ فارسَ ودينِها فاستعمهم بالجبلِ المعروفِ بـالبدينِ من أصل الرانِ .

وفي سنةِ ٢٠١ هـ وفي عهدِ الخليفةِ المأمونِ أظهَرَ أمرهُ و أعلَن عصيانَهُ ، فجهز له المأمونُ جيشاً بقيادةِ محمدِ بنِ حُمَيـدِ الطوسي ، فلم يستطع جيشُ المأمون أن يصمدَ في وجـهِ بـابَكَ وجيشِهِ ، فانهزم بعد مقتلِ قائدهِ محمدِ بنِ حُمَيدِ الطوسي ، وفـي سنةِ ٢٢٠هـ وفي خلافةِ المعتصمِ جهزَ له جيشاً بقيادةِ الأفشينِ.. كما سيأتي إن شاء اللهُ تعالى .

وأما مازّيارُ فسوف يأتي الحديثُ عنه لاحقاً بعـون الله تعالى .

تقدم معنا أنَّ أولَ ابتداء خروجِ بابَكَ كان سـنةَ إحـدى ومائتين في مدينةِ (البذ)[1] وهزم من جيوشِ السلطانِ عدةً وقتل من قوادهِ جماعةً ، فلما انتهى أمرُ الخلافةِ إلى المعتصمِ وجـه

---

(١) البذ: كورة بين أذربيجان وأوران . انظر معجم البلدان

وجه إليه عدة جيوش ، كان أولها جيش محمد بن يوسف الـــذي كان يكنى أبا سعيد .

فقد أمره المعتصم أن يتوجـــه إلـــى أردبيــل[1] ، وأن يتمركز فيها ويعيد بناء الحصون التي خربها بـــابك فيمـــا بيـــن زنجان[2] وأردبيل ، ففعل ، فكانت سرايا بابك تغير على بعــض تلك النواحي فتضرب وتقتل وتسرق ، فجمع أبو ســعيد جنــوده وخرج في طلب السرية ، فالتقى بها في بعض الطرق ، فـلاقتتلوا قتالا شديدا انتهى بمقتل جماعة كثيرة من أصحاب بابك وأســـر جماعة أخرى واستعادة ما كانوا أخــذوه فبعــث أبــو ســعيد بالرؤوس والأسرى الى المعتصم ، فكانت هذه أول هزيمة تـنزل ببابك وأصحابه.

---

(٢) أردبيل: مدينة من أشهر مدن أذربيجان ، انظر معجم البلدان

(٣)زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان ، وهي قريبة من أبهر وقزوين ، انظر معجم البلدان .

بأبَكُ ومحمدُ بنُ البُعَيثِ

وكانت وقعةٌ أخرى بين بابَكَ ومحمدِ بنِ البُعَـــثِ ذلـــك مصالحاً لبابَكَ تنزلُ سراياه عنده فيضيفُهم حتــــى أمِنـــوا بـــه فجعل بابَكَ يستعملُ المكرَ والخديعةَ ، فبعث إليـــه قـــائداً اســـمُهُ (عصمة) في سريهِ ، فنزل بسريته علـــى ابـــنِ البُعَيـــثِ الـــذي استضافه على عادتِهِ ، فلما تناولوا الطعامَ ، سقاهُمُ أبنُ البُعَيـــثِ الخمرَ حتى سكروا ، ثم وَثَبَ على عصمةَ فأوثَقَهُ وقَتَلَ مَنْ كـــان معه من أصحابهِ وسَيَّرَ عصمةَ إلى المعتصمِ الذي أخـــذ منـــه معلوماتٍ كافيةٍ عن بابَكَ وبلادهِ وطرقِهِ وجيشِه ، ثم زجَّهُ فـــي السجنِ فبقي محبوساً الى أيام الواثِق .

بابك والأفشين

من هو الأفشين..؟ هذا لقبه ، أما اسمه فحيدر ين كاوس ، أصله فارسي من أبناء الأمراء أو خيزر .

لقد كان من أمره أن اختاره المعتصم لبلائـــــه وحســـن خدمته ، وطاعته فانتهى به الأمر أن وكل إليه المعتصم مقاتلــــة بابك الخرمي ، وسوف يأتي الحديث عنه وعن حروبه مفصـــلا أن شاء الله تعالى .

هذا.. وقد اختلف المؤرخون في أمـــرِهِ فيذكـــرُ بعضُهم أنه كان قدِ انقلب على المعتصمِ وتآمر على دولةِ الإسلامِ ، ودعا سراً إلى الانقضاضِ على الخلافةِ لإســـقاطِها ، وكـــان يساعدُهُ على ذلك (مازيّارُ) الذي ســـيأتي الحديـــثُ عنـــه ، وأنّ مازيّارَ هذا هو الذي أقَرَّ عليه أنه حثّه على الخروج والعصيانِ.

ومنهم مَنْ يذكرُ أنْ القاضيَ أحمدَ بنَ أبي دؤادَ هو الــذي كاد له عند المعتصمِ ومازال به حتى أخذه وصلبه وأحرقـــهُ .

ويقولُ التبريزي في شرحِ ديوانِ أبي تمامٍ:

لم يكنِ الأفشينُ كافراً ولا منافقاً ، وإنما كان رجلاً مـــن الفرسِ فنعشهُ المعتصمُ ، وقد مدحه أبو تمامٍ بقصـــائدَ غـــيرَ أن الحسادَ أفسدوا ما كان بينهما ، فذكروا للمعتصمِ أنه منطوٍ علـــى خلافِكَ ، وصوّروه عنده بصورةِ المُعادين له ، وقالوا للأفشـــينِ:

إنَّ أميرَ المؤمنين عليه فتحقق المعتصمُ بانقباضِهِ ما كان
أُخبِرَ به عنه ، فأخذه وصلبه وأحرقهُ وانتهى.. واللهُ اعلم .

المعركة الأولى بين بابَكَ والأفشينَ

ذلك أنّ المعتصمَ بعث بُغا الكبير إلى الأفشينِ الذي انتدبَهُ المعتصمُ لقتالِ بابَكَ الخُرّميّ ، ورصدِ تحركاتهِ، والتعرُّفِ على طرقاتِهِ ومواقِعِهِ .

وأعطاه مالاً كثيراً للجندِ والنفقاتِ ، فلما وصل بغا الكبيرُ أرَدْبيلَ بلغ الخبرُ بابَكَ فجاء جاسوسٌ إلى الأفشينِ فأخبره خبرَ بابَكَ .

فكتب الأفشين إلي بُغا أنْ يريدُ الرحيلَ ، ويحملَ المالَ على الإبلِ ويمضِ نحوه حتى يبلغَ حصنَ النهرِ .

وانطلق الأفشينُ بجنودهِ سراً لم يضرِبْ طبلاً ولم ينشْر علماً ، ولم يرفعْ رايةً وأمرَ الناسَ بالتزامِ الصمتِ والحذرِ .

سار بابَكُ مع أصحابِهِ على طريقِ النهرِ ، وهو يظنُ أنّ المالَ يصادفُهُ ، فلما بلغ حصنَ النهرِ دخل هيثمُ الغنويُّ الحصنَ ونزل بابَكُ أمامهُ ، ووَضِعَ له كرسيٌّ وأرسل إلى الهيثمِ أنْ خلّي الحصنْ وانصرِفْ ، فأبى الهيثمُ ذلك ، فحاربهُ بابَكَ وهو يشوبُ الخمرَ على عادتِهِ والحربُ مشتعلَة.

أمّا الأفشينُ فقدِ التقى في طريقهِ بفارسين ، فقال لصاحبِ مقدميَهِ: أرى فارسين يركضان ركضاً شديداً ثم قال: اضربوا الطبلَ ، وانشروا الأعلامَ وارفعوا الراياتِ واركضوا نحوهم

وصيحوا : لبيكما.. لبيكما ...! ففعلوا ذلك ، وأجـــرى النـــاسُ خيلَهم حتى لحقوا ببابَكَ وهو جالسٌ فلم يستطِعْ أن يركبَ حتـــى وافتْهُ ، الخيلُ ،اشتبكتِ الحربُ ، وقامَتْ على ساقٍ ، فلم يُفلِـــتْ من رجالِ بابَكَ إلا القليلُ ، وأفلِتَ هو في نفرٍ يسيرٍ من فرســـانه ، ودخل (موقان[1]) وقد تفرق أصحابُهُ فـــي الشـــعابِ ورؤوسِ الجبالِ .

---

(١) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة، وهي بأذربيجـــان يمـــر القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال. انظر معجم البلدان .

سقوط عاصمة بابك

دارت حروب كثيرة وقاسية بين الأفشين وبابك من جهة ، وبين بابك وبغا الكبير من جهة أخرى قاسى المسلمون فيـــها أقسى ألوان المعاناة حيث أصابهم في خروجهم ذلك برد شـــديد وثلج كثير ، وصلوا إلى حالة لايستطيع أحدهم أن يتناول المـــاء أو يسقي دابته من شدة البرد ، وكثرة الثلـــج ، وكثافـــة الجليـــد فقالوا:

قد فنيَ ما معنا من الزادِ ، وأضَـــرَّ بنـــا الـــبردُ ، إمـــا راجعين إلى بلادنا ، وإما إلى ملاقاةِ الكافرِ .

وبلغتِ الأنباءُ المعتصمَ تحملُ اليه مقاساةَ الجندِ من الثلجِ والـــبردِ ومعاناتَهُمُ الشديدةَ من الجوع والتعبِ ، فجهز جيشاً كثيفاً وبعثَـــهُ مدداً للأفشينِ ، وبعثت إليه ثلاثين ألفَ ألفَ درهمٍ نفقـــةً للجنـــدِ وأمره أنْ يحسمَ أمْرَ بابَكَ ، وينتهيَ منه إما بقتلهِ أو بأسرهِ .

فانقضَّ الأفشينُ بجنودهِ على مدينةِ البذِ ، وهي عاصمـــةُ بـــابَكَ ودارَتْ بين الفريقين معركةٌ شديدةٌ وحاميةٌ انتهتْ بهزيمةِ بـــابَكَ وجنودهِ ، وسقوطِ مدينةِ البذِ التي دخلها الأفشينُ واستباح ما فيها بعد حصارٍ طويلٍ وصبرٍ كبيرٍ ، وقتالٍ شديدٍ .

القبض على بابَكَ

دخل المسلمون مدينةً البـــذِ بقيـادة الأفشــينِ فــاتحين منتصرين ، واحتووا على ما فيها من أمــوال وســلاحٍ وعتــادٍ تركها بابَكَ وجنودُهُ غنيمةً للمسلمين .

هذا.. وكان بابَكَ قد هرب بمن معه من أهلِهِ وولده ومعه أمُـــهُ وامرأتُهُ فلاذا بمكان بعيدٍ في الجبلِ في شرذمةٍ قليلةٍ من جنــودِهِ الذين نجوا من سيوف المسلمين .

وبات بابَكَ في مخبئهِ فترةً نفذ ما لديه من طعام وشراب ، مقاسياً ألمَ التعبِ والجوعِ والخوفِ والعطــشِ فشــاهد فلاحــاً يحرثُ الأرضَ ، فبعث غلامَهُ وأعطاه ذهباً وقال له: اذهبْ إلــى ذلك الفلاحِ وأعطِهِ الذهبَ ، وخذ ما معه مــن طعــامٍ ، ففعــل فنظر شريكُ الفلاحِ من بعيدٍ فأبصرَهُ وهو يأخذُ منه الخبزَ فظـنَّ أنه قدِ اغتصبهُ منه فذهب إلي حصنٍ قريبٍ منـــه فيــه نــائبٌ للخليفةِ يقالُ له (سهلُ بنُ سنباطَ) فنقل إليه خبرَ الغلامِ والفـــلاحِ فركب سهلٌ وذهب بنفسهِ ليستعرضَ الموقفَ ، فرأى الغلامَ فقال له:

ما خبرُك...؟

قال: لاشيءَ ، إنما أعطيتُهُ دنانيرَ وأخذتُ منه الخبزَ.

فقال: ومَنْ أنتَ...؟

فأراد أن يكتمَ أمرَهُ ويعمّيَ عليه الخبرَ.

ولكن سهلاً ارتاب منه ودخله شيئٌ من أمرِهِ فأصر عليه وهَدّده بالقتلِ إن لم يبحْ إليه بأمرِهِ ، فاعترف له وقال: أنا من غلمانِ بابَكَ.

فقال: وأين هو الآن ...؟

قال: هاهو ذا جالسٌ يريدُ الغداءَ .

فمضى سهلٌ نحوه وتظاهر أنه مشفقٌ عليه ، وأنه من أتباعِهِ فلما رآه ترجَّلَ وقبَّلَ يدَهُ وقال له: ياسيدي ، أين تريدُ...؟

قال: أريدُ أن أدخلَ بلادَ الرومِ .

قال سهلٌ: الى مَنْ ستذهبُ أقنَعَ من حصني وأحرزُ وأنا غلامُكَ وفي خدمتِكَ...؟

وما زال به سهلٌ حتى خَدَعَهُ وأخذه الى الحصنِ، فأنزله عنده وأجرى عليه النفقاتِ الكثيرةَ ، والتحفَ الثمينةَ ليجعلهُ يحسُ بالأمانِ فلا يدخلُ الى نفسِهِ ريبٌ أو شكٌ فيخشاهُ .

هذا ... وكتب سهلٌ الى الأفشينِ يُعلمُهُ بأمر بابَكَ فأرسل إليه أميرين وبعضَ الجندِ للقبضِ عليه ، وأراد سهلٌ أن يزيدَ من مؤانسةِ بابَكَ ، فقال له:

إنه قد حصل لك همٌ وضيقٌ من هذا الحصن وقد عزمتُ على الخروجِ اليومَ الى الصيد ومعنا بزاةٌ وكلابٌ ، فإنْ أحببتَ أن تخرجَ معنا لتشرحَ صدركَ وتُذهيبَ همَّكَ فافعلْ .

فأجابه بابَكَ الى ذلك ، فخرجوا ، فأرسل سهلٌ الى الأميرين أن يلتقيَ بهما في مكانٍ كذا وكذا في وقت كذا وكذا فأقبل الأميران بمَن معهما من الجنودِ فأحاطوا ببابَكٍ ، وهرب سهلٌ ، فقالوا له: ترجَّلْ عن دابتك .

فقال: ومَنْ أنتما...؟

فقال: إنهما من قِبَلِ الأفشين ، فنظر بابَكُ إليه والشرُ يتطايرُ من عينِهِ ونظراتُ الحقدِ والغضبِ تكادُ تقتلعُ سهلاً من الأرضِ ، فقال له: قبحكَ الله ، فهّلا طلبتَ مني من المالِ ما شئتَ كنتُ أعطيتُك أكثرَ مما يعطيكَ هؤلاء .

ثم أخذوه وانطلقوا به إلى الأفشينِ ، فلما اقتربوا منه خرج فتلقّاه ، وأمَرَ الناسَ أن يصطفّوا صفّيف وأمر بابَكَ أن يترجّلَ فيدخلَ بين الناسِ وهو يمشي على رجليه ، ففعل ذلك وكان يوماً عظيماً مشهوداً جداً ، ثم أمر به فزُجَّ في السجنِ وكتب إلى المعتصم بذلك فأمَرَهُ أنْ يقدِمَ عليه به وبأخيه ، وكان قد أمسكهُ أيضاً وكان اسمَ أخيه عبدُ الله ، فجَهَّزَ الأفشينُ بهما ليصَحَبهما معه الى الخليفةِ المعتصمِ .

وكان اللأفشينُ قدِ استخلَصَ نساءً كثيرةً وصبياناً كثيراً ذكروا أن بابَكَ أمرهم وأنهم أحرَرٌ من العربِ والدّهاقين فأمر بهم فجعلوا في حظيرةٍ ، كبيرةٍ ، وأمرهم أن يكتبوا إلى أوليائهم

فكلُ مَنْ جاء يعرفُ امــرأةً ، أو صبيــاً ، أو جاريــةً ، وأقــام شاهدين أخذهُ ، وهكذا رجعوا جميعاً إلى أهليهم وذويهم .

قدوم الأفشين ببابك

إلى المعتصم

في صبيحة يوم الخميس الثالث من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين قدم الأفشين على المعتصم يقود بابك الخرمي وأخاه في تجمع رهيب وجماهيرية كثيرة لم تشهد سامراء ،مثلها حشدا وتجمعا ، خرجوا ليشهدوا دخول بابك الخرمي سامراء ذلك الذي أتى بعقيدة فاسدة أفسد على الناس معتقداتهم ، وهدم الأخلاق ونشر الرذيلة ، واستباح الأعراض والأموال ، وعاث في الأرض الفساد ، لم يرع ذمة ، ولم يحفظ عهدا ، ولم يخش وعدا ولا وعيدا .

هذا ... وكان المعتصم قد أمر ابنه هارون الواثق أن يستقبل الأفشين ، وكانت أخباره يغد إلى المعتصم كل يوم من شدة اهتمامه بأمر بابك ، فلما بلغ الأفشين سامراء أمر بابك على فيل ليشرف على الناس ويعرفوه وكانوا قد أعدوا الفيل وخضبوا أطرافه وألبسوه الحرير والأمتعة الفاخرة ، وفي ذلك قال بعضهم :

قد خضب الفيل كعاداته	والفيل لاتخضب أعضاؤه
يحمل شيطان خراسان	إلا الذي شأن من الشان

ولما احضر بين يدي المعتصم أمر بقطع يديه ورجليه وجز رأسه ، وشق بطنه ، ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان وصلب جثته على خشبة بسامرا .

وكان بابك قد شرب الخمر ليلة مقتله ، وكان هذا الملعون قد قتل من المسلمين في مدى عشرين عاما عددا كبيرا وأسر عددا لا يحصى ، وكان حملة من استنقذه الأفشين من أسره نحوا من سبعة آلاف وستمائة إنسان .

ثم أراح الله تعالى منه العباد والبلاد بعدما افتتف به خلق كثير ، وجم غفير من عوام المسلمين وغيرهم على اختلاف مللهم ونحلهم .

مكافأةُ الأفشين

ولقد أكرمَ المعتصمُ جميعَ من شارك في القبضِ على بابَك ، وخلع عليهم من عطاياه ما يجلُّ عنِ الوصفِ فتَّوج الأفشينَ وقلَّدَه وشاحين من جوهرٍ، وأطلق له عشرين ألفَ ألفَ درهمٍ ، وكتب له بولايةِ السند وأمر الشعراءَ أن يدخلوا عليه فيمدحوه على ما فعل من خيرٍ للناس ، وما قدم من خدمةٍ للدين والعقيدةِ ،وعلى ما فعله من تخريبٍ ببلاد بابَك وتركهِ إياها قيعاناً خراباً .

وأمَرَ لسهلِ بنِ سنباطَ الذي دلَّ عليه وأمكَنَ الجندَ منه بألفِ ألفِ درهمٍ ، ومنطقةً مغرقةً بالجواهر ، وتاجَ البطرقةِ .

وفي مدحِ الأفشينِ قال الشعراءُ فأحسنوا ، وكان من جملتِهم أبو تمامٍ الطائيُّ الذي قال في مدحهِ في قصيدةٍ طويلةٍ منها :

بذَّ الجلادُ البذَّ فهو دفينُ ... ما إنْ بها إلا الوحوشُ قطينُ[1]

---

(١) بذَّ القومَ يبذهم بذاً: سبقهم وغلبهم ، والبذ الثانية: اسم كورة من كور بابك الخرمي. والجلاد : القتال ، وقطين : جمع قاطن وهو المقيم ، والجمع قُطّانٌ وقَطُنٌ . المعنى: أن القتال أودى بأهل مدينة البذ فلم يُبقِ فيها أحداً وجعلها مسكناً للوحوش بعد أن باتت قفراً من أهلها .

لم يفرِ هذا السيفُ هذا الصيرفيُّ هيجاءَ إلا عزَّ هـــذا الدينُ
قد كان عذره سودَءِ فامتقها بالسيف فحلُ المشرقِ الأفشينُ
فأعادها نعوي الثعالبُ وسطها ولقد تُرى بالأمسِ وهي عرينُ
هَطَلَتْ عليها من جماجمِ أهلِها دمَيمٌ إمارتُها طُلى وشؤونُ
كانت من المهجاتِ قبل مغازةٍ عُشراً فاصبحَتْ وهي منه منيفُ

وفي هذه المناسبةِ قام إبراهيم بنُ المهدي فقال يمدحُ المعتصمَ :

يا أمين اللهِ إن الــ حمدَ لله كثيرا
هكذا النصرُ فلازا ل لك اللهُ ناصرا
وعلى الأعداءِ أعط تَ من اللهِ ظهيرا
وهنيئاً هيَّأَ اللهُ لك الفتحَ الخطيرا
فهو فتحٌ لم يرَالنا سُ له فتحاً نظيرا
وجزى الأفشينَ عبدا للهِ خيراً وحبورا
فلقد لاقى بــه بـــا بَكُ يوماً متمط يرا
ذاكَ مولاكَ الذي ألــ فيتَهُ جَلْداً صبورا
لك حتى ضرَّج السيفُ له خدّاً نضيرا
ضربةً ألفَتْ على الدهرِ له في الوجهِ نورا

وكما توَّجَ المعتصمُ الأفشينَ بتاجٍ من الذهـــبِ مرصـــعٍ بالجواهرِ ، وخلع عليه من العطايا ، وأغدق عليه من الأمـــوال والهدايا ما ذكر فيما تقدَّم ، كذلك زوَّجَ الحسنِ بنَ الأفشينِ بــــ (أترجةَ) بنت أشناسَ أحدِ قوادِ جيشِـــهِ وزُفَّـــتْ إليـــه بحضـــورِ المعتصمِ الذي أقام لها عرساً كبيراً دعا اليه الســـادةَ والـــوزراءَ

والقادةَ والأمراءَ ، وأنفقَ فيه من الأموالِ ما يتناسبُ مع قدرِهـــا في البهاءِ والجمالِ وكانت توصفُ بالجمالِ والكمالِ .

وكما كان من ليلةِ الزفافِ ما عمَّ سرورُهُ العامَّ والخـلصَّ ، قام المعتصمُ شخصياً فقال أبياتاً يصـــفُ حُسْــنَ العروسَــين وجمالَهما واجتماعَهما ، وهي :

زُفّتْ عروسٌ الى عروسٍ   بنتِ رئيسٍ الى رئيسِ
أيهما كان ليتَ شعري   أجلٌّ في الصدورِ والنفوسِ
أصاحبُ المرهفِ المحلّى   أم ذو الوشاحين والشموسِ

هجومُ الرومِ على زِبَطْرَةَ

وكان من أسبابِ ذلك الـهجومِ ، العـداءُ القديـمُ بيـن المسلمين والرومِ ، والإغاراتُ الكثيرةُ والمتكررةُ من الفريقيـن كلٌ منهما على الأخرِ، أضيفْ إلى ذلك ما كان من بابَكَ الخرَّمي حين حاصره الأفشينُ في مدينةِ البّذِ وضيَّقَ عليه حتى يئسَ مـن النجاةِ وأشرف على الهلاك في هذه الظروفِ القاسيةِ كتب بـابَكٌ إلى توفيلَ ملك الرومِ يقولُ فيه: إن المعتصمَ ملكَ العربِ قد وجَّهَ عساكرَهُ إلى بلادِكَ يريدُ أن يهجمَ عليكَ على حينِ غِرةٍ ، فـإنْ أردتَ الخروجَ إليه فليس في وجهك أحدٌ يمنعُك .

وكان بابَكُ يعتقدُ أن ملِكَ الرومِ إن تحرك بجيشِهِ انكشف عنه بعضُ ما هو فيه بتحويلِ بعضِ جنودِ الأفشينِ إلـى صـّدِ هجومِ الرومِ فينفكُّ عنه الحصارُ ويخرج مما هو فيه من شـدةٍ وضيقٍ .

فجهز توفيلُ جيشهُ وخرج على رأسِ مائةِ ألفِ مقاتلٍ وانضمَّ إليه الجنودُ الذين كانوا في الجبال لقتـالِ إسـحاقَ بـنِ إبراهيم مصعب ، وكانوا متحصنين في الجبال فلم يقدِرْ عليـهم إسحاقُ بنُ إبراهيمَ ، فلما خرج توفيلُ ملكُ الروم انضموا إليـه فازداد بهم قوةً ومنعةً .

وانضمَّ إليه ملوكُ برجانَ والبلغارِ والصقاليةِ وغيرُهم ممن جاورهم من ملوكِ الأممِ الذين يريدون الشَّر بالمسلمين ، فهجموا على مدينةِ زِبَطْرَة[1] من الثغرِ الخزري[2] فافتتحوها بالسيف ، وقتلوا الصغيرَ والكبيرَ وسبوا ونهبوا وأحرقوا المنازلَ ، وهدموا المساجدَ وعاثوا في الأرضِ الفسادَ ، وأغاروا على بلادِ ملطيةَ وما والاها من البلادِ ، وفعلوا فيها كما فعلوا بزِبَطْرة من قتلٍ ونهبٍ وأسرٍ وهدمٍ وحرقٍ...الخ .

وكان من جملةِ ما أسروا ألفُ امرأةٍ من المسلماتِ ومثّلوا بالأسرى من الرجالِ بصفاقةٍ ووحشيه .

فقطعوا أُذُنَهم وأنوفَهم ، وسحلوا أعينَهم ، ومثلوا فيهم تمثيلاً فظيعاً ، وأنزلوا فيهم مقتلةً وبشعةً تقشعرُّ لذكرِها الأبدانُ ويشيبُ لها الوِلدان .

لقد تركوا البلادَ قاعاً صفصفاً لاترى فيها عوجاً ولا أمتى ، وأشعلوا فيها النيرانَ التي أتَتْ على كل سيئٍ فجعلَتْهُ

---

(١) زبطرة: بكسر الزاي ، وفتح الباء وسكون الطاء بعدها راء مهملة: مدينة بين ملطية وسُمَيْاط والحدث في طرفِ بلادِ الروم. انظر معجم البلدان.

(٢) أي من بلاد الخزر.

كهشيمِ المحتضِرِ ، تدمى لرؤيتِهِ القلوبُ وتذرفُ لـــه العيــونُ ، وتسلبُ عليه دمعاً حزيناً مدراراً .

ففجَّ الناسُ في الأمصـارِ ، واستغاثوا في المساجد والديارِ ووردتْ على المعتصمِ الأخبارُ ، أنّ أمرأةً مسلمةً استغاثَتْ بـــه ونادتْ وهي أسيرةٌ في أيدي الرومِ (وامعتصِماه) فأجابها وهــو جالسٌ على سريرِهِ : لبّــيك.. لبّــيك..!!

وجعل إبراهيمُ بنُ المهدي يثيرُ حماسَةُ ويفخرُ أحاسيسَـــهُ ، ويحثُّهُ على الجهادِ ، ويحضُّهُ على استخلاصِ الأسرى وإغاثــةِ الثكالى ، وألقى بين يديه قصيدةً طويلةً قال فيها:

يا غارةَ الله قد عانيتِ فانتهكي   هُيكَ النساءُ وما منهنَّ يرتَكَبُ

هبِ الرجالَ على أجرامها قُتِلَتْ   ما بال أطفالها بالذبحِ تنهَبُ

ويروي أن إبراهيمَ بنَ المهدي أولُ مَنْ قال في شعرِهِ: (ياغـــارةَ اللهِ) وتصايحَ الناسُ في كلِ مكان ، وتثرتْ في نفوسِهِمُ النخـــوةُ العربيةُ ، والشهامةُ الإسلاميةُ ، وتفجَّرَتْ من جوانِبِـــهِم ثـــورةُ الحماسِ ، وعظُمَ في قلوبِهِمُ الشعورُ بالواجبِ الديني والوطنــــي وجعلوا ينادون في اندفـــاعٍ وحمـــاسٍ... اللهُ أكـــبرُ... اللهُ أكـــبرُ فأجابهمُ المعتصمُ :

اللهُ أكبرُ... اللهُ أكبرُ ، ونهض من فورهِ ونادى بـــالنفيرِ وأمـــر بتعبئةِ الجيوشِ ، وقبولِ المتطوعين الراغبين بالثأرِ ، والطامعين بالشهادةِ ، فأجتمع له عددٌ كبيرٌ من الشبابِ والشيوخِ والصبيـــانِ والنساءِ ، واستدعى القضاةَ والشهودَ فكتب لهم أنّ جميـــعَ مـــا

يملكه من الضياع والأموال ثلثه صدقة في ســـبيل الله ، وثلثــه لمواليه وأشهد على ذلك .

وأقسم من مكانه أن ينزل بالروم أشد وأقسى مما أنزلوه بالمسلمين ، وأن يثأر لكل ثكلى وأرملة ويتيم ومفجوع .

التوجُهُ الى عموريةَ

في صبيحةِ يوم الأثنين الثاني من جمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وعشرين ومائتين خرج المعتصمُ بجيشِهِ من بغدادَ فعسكر قريباً من نهرِ دجلةَ في الجهةِ الغربيةِ منه وأرسل أمامهُ عُجَيفَ بنَ عنبسةَ وطائفةً من القادةِ والأمراءِ ، ومعهم عددٌ من الجنودِ والفرسانِ عوناً لأهلِ زِبَطْرةَ ، فأطلقوا يسرعون الخُطى ويغذّون السيرَ حتى بلغوا زِبَطْرةَ فلم يروا فيها سوى الخرابِ والدمارِ والدخانِ والرمادِ والوحوشُ الكاسرةُ ، والطيورُ الجارحةُ تمزقُ جثَثَ القتلى وتلتهمُها بشراسةٍ مذهلةٍ ، ووحشيةٍ فظيعةٍ ، فلووا أعناق خيولِهم ، وانشمروا راجعين إلى أميرِ المؤمنين المعتصمِ لإعلامهِ بما وقع من الأمرِ وليصفوا له ما رأوه ، فغضبَ غضباً شديداً وأوقدَتْ نارُ ثورتِهِ وجحظَتْ عيناه ، واحمرَّ وجهُهُ وانتفخَتْ أوراجُهُ وغدا كأنه كتلةٌ متقدةٌ من الجمرِ لا تأتي على شيءٍ إلا أحرقتْهُ رماداً .

وبينما هو في ثورتِهِ وانفعالهِ يحدّقُ بعينيهِ ويضغطُ على أسنانِهِ إذ انطلق لسانُهُ قائلاً : أيُّ بلاد الرومِ أمنعُ...؟

قالوا: عموريةُ ، لم يعرضْ لها أحدٌ منذُ فجرِ الإسلام ، وهي أشرفُ عندهم من القسطنطينيةِ .

فقال: إذن إلى عموريةَ ، انطلقوا على بركةِ اللهِ واللهُ معنا ، والنصرُ لنا بعونِ اللهِ تعالى .

وجعل المسلمون يرددون خلفَهُ: اللهُ اكبرُ... اللهُ أكـــبرُ...
اللهُ معنا ، والنصرُ لنا ، هذا ... والعلمـــاءُ يرفعــون أصواتـــهم
بالدعاءِ وتلاوةِ القرآنِ وترديد آياتِ الجهاد والحثِ على الصـــبرِ
والثباتِ فإنما هي إحدى إما النصرُ أو الشــــهادةُ ، فــلا تـــهنوا
وتدعوا إلى السَّلْمِ وأنتمُ الأعلون واللهُ معكم ولن يَتَرِكُمْ أعمالكم[1]
(قد كان لكم أيةٌ في فئتين التقتا فئةٌ تقاتلُ فــي ســبيلِ اللهِ
وأُخرى كافرةٌ يرونهم مثلَيهمَ رأيَ العينِ واللهُ يؤيدُ بنصرهِ مَــنْ
يشاءُ إنَّ في ذلك لعبرةٌ لأولي الأبصار)[2].
(فلْيقاتلْ في سبيلِ اللهِ الذين يشرون الحياةَ الدنيا بـــالآخرة
ومَنْ يقاتلْ في سبيلِ اللهِ فيُقتَلْ أو يَغلِبَ فســـوف نؤتيـــه أجـــراً
عظيماً)[3] .
(الذين آمنوا يقاتلون في سبيلِ اللهِ والذين كفروا يقاتلون في سبيل
الطاغوتِ فقاتلوا أولياءَ الشيطانِ إنَّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً)[4]
(يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفارِ وليجـــدوا فيكـــم
غِلظةً واعلموا أنّ اللهَ مع المتقين)[5] . صدق الله العظيم

---

(١) الآية /٣٥/ من سورة محمد .

(٢) الآية /١٣/ من سورة آل عمران .

(٣) الآية /٧٤/ من سورة النساء .

(٤) الآية /٧٦/ من سورة النساء .

(٥) الآية /١٢٣/ من سورة التوبة .

بهذه الروحِ العاليةِ ، والعقيدةِ الصافيةِ ، والنيةِ الصادقــةِ والأيمانِ الخالصِ العميقِ انطلق المعتصمُ يقودُ جنودُ إلى معركــةِ الشرفِ والكرامةِ ، إلى معركةِ النبلِ والشهامةِ ، إلـــى معركــةِ الثأرِ لإحقاقِ الحقِ وإبطالِ الباطلِ ، لنصـــرةِ المظلــومِ وردعِ الظالمِ ، لإنصافِ الضعيفِ وإقامةِ القصاصِ العادلِ .

وكان المعتصمُ قد أعدَّ مـــن لــهذه المعركــةِ الهامــةِ والمصيريةِ جيشاً لم يعدَّهُ أحدٌ من قبلُ ، وتجهز جهازاً لم يجهزهُ أحدٌ كان من قبله من الخلفاءِ ، واصطحب معـــه مـــن معــداتِ الحربِ والأحمالِ ، والجمالِ والقربِ والدوابِ والخيلِ والبغالِ ما لم يُسَمعْ بمثِلهِ في تاريخ القادةِ والمقاتلين ، ومضى إلى عموريــةَ في جحافلَ أمثالِ الجبالِ ، وانطَلَقتْ تدكُّ الأرضَ تحتَ أقدامِـــها دكاً فأحدثتْ رجةً عنيفةً تجــاوبتْ أصداؤهــا أركــان الأرضِ وخلقت خوفاً وهلعاً في نفوسِ من سمعها ، وألقَتْ فـــي قلوبــهمُ الرعبَ من مفاوزَ بعيدةٍ ، وأخذوا يتسألون في قلقٍ واضطرابٍ عن مصدرِ هذه الرجةِ التي ملأتْ قلوبَهم فرقاً ، وملأت جوانبَهم دهشةً ورهبةً ، وجعلتهم يغرّون أمامها كالطغيانِ الشــاردةِ دون أن يعلموا مَنْ هم ومنْ يقصدون ، ومَنْ أين قدموا ، والى أيـــن يذهبون...؟

تعبئة الجيش

هذا... وكان المعتصم قد عبأ جيشه على الصغة التي تقدمت ، ثم أخذ يعين القادة على تعبئة الجيش فكان على الشكل التالي:

لقد جعل على مقدمة الجيش فارسا كبيرا يقال له: أشناس التركي ، ويتلوه محمد بن إبراهيم .

وعلى الميمنة فارسا آخر يقال له: إيتاخ التركي .

وعلى الميسرةِ جعفرَ بنَ دينارِ الخياط .

وعلى الساقة[1] بُغا الكبيرَ ، ويتلوه دينارُ بنُ عبدِ الله .

وعلى القلب عُجَيفَ بنَ عنبسةَ ، وجميعُ هؤلاءِ فرسانٌ أشداءُ لا يُشَقُ لهم غبارٌ ، ولايقومُ أمامَ أحدِهم جيشٌ ، بل إن أحدهم يعدِلُ جيشاً بكاملِهِ .

وأرسل المعتصمُ الأفشينَ أمامه ، وأمره أنْ يدخلَ من دربِ الحَدثِ ، وحدَّد له يوماً يكونُ دخولُهُ فيه ويوماً يلَون اجتماعُهُم فيه .

وأرسل أشناسَ عن طريقِ طرسوس ، وأمرَهُ بأنتظارِهِ في مكانٍ يقالُ له: الصفصافُ ، وذلك في شهرِ رجبَ سنةَ ثلاثٍ

---

(١) الساقة : المشاة .

وعشرين ومائتين كما تقدَّمَ ، وكان ملكُ الرومِ قــد ركــب فــي جيشِهِ متقدماً للقاءِ المعتصمِ فتقاربا حتى كان بينهما مسافةُ نحــوِ أربعةِ فراسخَ .

الأفشينُ وملكُ الروم

أما الأفشينُ فكان قد دخل بلادَ الرومِ وتوَّغلَ فيها ولكن من ناحيةٍ أخرى ، فأصبح ملكُ الرومِ بين المعتصمِ والأفشين فضاق بذلك ذرعاً ، وأصابه خوفٌ شديدٌ أن يكونَ موقفهُ هذا نتيجةَ خطةٍ مدروسةٍ بحكمةٍ من المسلمين ليضعوه بين فكي كماشةٍ فيقطعوا عليه وتكونُ نهايتُهُ ، فبات في همٍ شديدٍ ، وحالةٍ نفسيةٍ سيئةٍ وأخذ يدرسُ الموقفَ ويقلبُ الأمورَ وينظرُ أنْ هو ناجزَ الخليفةَ جاءَهُ الأفشينُ من خلفِهِ فالتقيا عليه فيهلكُ ، وإنْ ناجزَ الأفشينَ وترك الخليفةَ أخذه كذلك من خلفِهِ فأيقنَ أنه على كلا الحالتين هالكٌ لا محالةَ .

فبينما هو موقفِهِ الحرج هذا إذ بطلائعِ الأفشين تبدو له من بعيدٍ ، فسار نحوها في شرذمةٍ من جيشِهِ واستخلفَ على بقيةِ الجيشِ قريباً له .

وفي صبيحةِ يومِ الخميسِ لخمسٍ بقينَ من شعبانَ التقى مع الأفشينِ في قتالٍ شديدٍ ثبت فيه الأفشينُ ومَنْ معه من المسلمين ثباتاً مشرفاً كان النصرُ حليفَهم على الروم الذين قُتِل منهم عددٌ كبيرٌ ، وجُرِحَ كثيرون آخرون وهرب الملكُ ومَنْ بقي معه من الجندِ ، ورجعوا الى أماكنهم فلم يروا أحداً وعلموا أن بقيةَ جيشهِم قد شرَدوا عن قريبِهِ ، وأخلوا مواقعَهم ، وذهبوا عنه وتفرقوا في الشعابِ والجبالِ ، فغضب الملك غضباً شديداً ورفع

سيفهُ فضرب به عنقَ قريبِهِ ، وبات يقلبُ الأمورَ ، ويفكرُ في نتائجها وعواقبِها .

وجاءَتِ الأخبارُ بذلك كلِهِ الى المعتصمِ الذي سُرَّ بالغاً وفرح منها فرحاً شديداً جعله يتفاءَلُ بالنصرِ المؤَزّرِ والفتحِ المبينِ ، فركب من فورِهِ وأمر بالتوجُّهِ الى أنقرةَ ، ووافاه الأفشينُ بمن معه هناك ، فوجدوها خاليةً من أهلها الذين خرجوا منها خائفين على أنفسِهِم .

خبرُ أشناسَ

أمّا أشناسُ فقد سلك الطريقَ التي أمرهُ أميرُ المؤمنين أنْ يسلكهاَ حتى إذ صار بمكانٍ يقالُ له: (مروج أسقف) ورد عليه كتابٌ من أميرِ المؤمنين المعتصمِ يُعلمُهُ فيه أنَّ ملكَ الرومِ في طريقِهِ إليه ، وأنه يريدُ أنْ يأتيهُ بغتةً ، فعليه أن يمكثَ في مكانِهِ حتى تردَ إليه المعلوماتُ بتحركِ ملك الرومِ فأقام أشناسُ في مكانِهِ ثلاثةُ أيامٍ ، فورَدَ عليه كتابٌ آخرُ من المعتصمِ يأمُرُهُ أنْ يوجّهَ قائداً من قوادِهِ في سريةٍ يلتمسون رجلاً من الرومِ يسألونه عن أخبارِ الملك وتحركاتِهِ ، فوجَّهَ أشناسُ عمراً الغرغانيَّ في مائتي فارسٍ .

فأنطلق عمرٌ ونقصّى الأخبارَ ، وفرّق أصحابَهُ في طلبِ ، رجلٍ رومي فرجعوا وقد أتوَ بعددٍ من الرجالِ منهم من جنودِ الملكِ ، ومنهم من عامّةِ الناسِ فسألهم أشناسُ عن أخبارِ الملكِ ، فأخبروه أنه مقيمٌ منذ أكثرَ من ثلاثين يوماً ينتظرُ جيشَ المسلمين ليشتبكَ معهم فأتاه الخبرُ بأنَّ عسكراً عظيماً قد دخل بلادَهم من ناحيةِ الأرمنياقِ ، تعنون بذلك العسكرِ عسكرَ الأفشينِ ، وتلوا عليه خبرَ اشتباكهِم مع الأفشينِ .

فكتب أشناسُ إلى أميرِ المؤمنين يُخبرهُ بذلك فكتب بدورهِ كتاباً إلى الأفشينِ يحذرهُ أنَّ ملك الرومِ قادمٌ إليه ، وعليه أن يقيمَ مكانهُ خوفاً عليه من أن يفاجئَهُ بغتةً وعليه أن يبقى

كذلك إلى أن يردَ عليه كتابٌ منه مزوَّدٌ بتعليماتٍ جديدةٍ وضمن أميرُ المؤمنين المعتصمُ لمن يوصلُ كتابهُ إلى الأفشينِ عشرةَ آلافِ درهمٍ لحساسيةِ الموقِ ودقتِهِ .

ومضتِ الرسلُ بكتابِ أميرِ المؤمنين الى الأفشينِ فلم يجدوه لأنه أوغلَ في بلادِ الرومِ .

وكان أشناسُ قد أسَرَ في طريقِهِ عدداً من الأسرى فضرب أعناقهم حتى بقيَ منهم شيخٌ كبيرٌ فقال له: ما يفيدُكَ قتلي ، وأنتَ وعسكرُكَ في ضيقٍ وههنا قومٌ قد هربوا خوفاً منكم ، وهم بالقربِ مِنّا معهم الطعامُ والماءُ والشعيرُ والعلفُ وغيرُ ذلك ، فأرسِلْ معيَ بعضَ جندِك لأسَلِمَهُم إليهم ، وخلِّي سبيلي .

فأرسل معه خمسمائةِ فارسٍ وجعل أميرَهم ملكَ بنَ كيَدرَ ، وقال له : متى أراكَ هذا الشيخُ سبياً كثيراً أو غنيمةً كبيرةً فخلِّ سبيلَهُ .

فساربهمُ الشيخُ حتى صار على مشارفِ أنقرةَ في مكان يقال له: (الملاّحةُ) وإذا فيه عددٌ كبيرٌ من جنودِ الرومِ ، ومن أهلِ أنقرةَ ، فلما رأو المسلمين مقبلين إليهم أدخلوا النساءَ والصبيانَ الملاّحةَ ، وتجردوا لقتالِهِم قريباً منها فقاتلهمُ المسلمون حتى غلبوهم ، وأخذوا منهم عدداً من الأسرى ومغانم كثيرةً ،

فسألوهم عن أمرِهم فأخبروهم أنهم كانوا مع الملكِ حين قاتل الأفشينَ وهربوا أمامَهُ .

فرجع مالكُ بنُ كيدَرَ بما معه من الغنائمِ والأسرى الى معسكرِ أشناسَ وأطلقَ الشيخَ ، وأخبر أشناسَ خبرَ الملكِ كما سمع من الأسرى فأخبرَ أشناسُ أمير المؤمنين ، فسُرَّ به سروراً عظيماً .

وبعد ثلاثةِ أيامٍ اجتمع المعتصمُ بالأفشينِ وأشناسَ في مدينةِ أنقرةَ الخاليةِ من الجنودِ والمقاتلين ، فأقاموا فيها ثلاثةَ أيامٍ

حصارُ عمورية

وخلال إقامةِ أميرِ المؤمنين وجيشِــهِ بــأنقرةَ أســتردّوا عافيتهم ، وأخذوا قسطاً وافراً من راحةِ الجسدِ والأعصابِ ، ثــم أشار على قادةِ الجيشِ والأمراءِ أن هذه الإقامةَ لن تدومَ ، وأنــهم لم يأتوا الى هذه البلادِ للنزهةِ والأستجمامِ ، بل جــاء والخدمــةِ قضيةٍ عادلةٍ ومقدسةٍ ولتنفيذِ مهمةٍ محددةٍ ، وهي الثأرُ للشــرفِ والعرضِ والدينِ والوطنِ ، والواجبُ يقضي عليهمُ القيــامَ بــها على أتّمِ وجهٍ ، وبكلِ صدقٍ وثقةٍ وإيمانٍ وإخلاصٍ وهذا عــهدٌ قطعوه على أنفسهمِ من قبلُ وعاهدوا اللهَ عليه(فمن ينكثُ علــى نفسهِ ومَنْ أوفى بما عاهدَ عليهُ اللهَ فسيؤتيهِ أجراً عظيماً)[1] .

(ولقد كانوا عاهدوا اللهَ من قبلُ لايولّون الأدبارَ وكان عهدُ اللهِ مسئولا)[2]. صدق الله العظيم

ثم جعل المعتصمُ يعيدُ تشكيلَ الجيشِ مرةً أخرى فقســمه الــى ثلاثةِ عساكرَ:

عسكرٌ فيه أشناسَ في الحيرةِ ، والمعتصمُ في القلبِ .

وعسكرُ الأفشينِ في الميمنةِ ، وبين كل عسكرٍ فرســخان ، وعلى كلِ عسكرٍ أن يكونَ له ميمنةٌ وميسرة .

---

(١) الآية /١٠/ من سورة محمد .

(٢) الآية /١٥/ من سورة الأحزاب .

وأمَرَهم أن ينطلقوا بســـمِ اللهِ ، وعلـــى بركــةِ اللهِ وأن يكثروا من قولِ: لا إله إلا اللهُ ، محمدٌ رسولُ اللهِ وأن يتوغّلـــوا في البلادِ ، ويحرقوا القـــرى ، ويـــهدموا البيـــوتَ ، وبـــأخذوا الأسرى ، ويُظهروا للعدوِ القوةَ والبطشَ والبأسَ والشدةَ والمنعــةَ ، وأنَّ المسلمين لايسكتون على الضيمِ ولا يرضون بـــالذلِ ، ولا يقبلون الإهانةَ ، ولا يرضخون للقوةِ والغـــدرِ والتـــهديدِ ، بـــل يردّون الكيلَ كيلين ، والصاعَ صاعين ، وإذا ضربـــوا العـــدوَّ أوجعوه ، وإذا هجموا عليه آلمـــوه وأرَوه بطشـــهم وبأســـهم ، وأنزلوا به قارعةً تحلُّ بدارِه فتجعلُها خراباً وتحولُها إلى أثرٍ بعد عينٍ ، هذا لمَنْ أراد بهم الشَّر، أمّا مَنْ وادَعَهم وسالَمَهم وحفـــظ معهمُ العهدَ والميثاقَ كانوا على درجةٍ عظيمةٍ من السلمِ والأمـــانِ والرحمةِ والتسامحِ والإنسانيةِ ، وهـــذا مـــن صلـــبِ الإســـلامِ وصميمِهِ ، قال اللهُ تعالى :(وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذين يقـــاتلونكم ولاتعتدوا إنَّ اللهَ لا يحب المعتدين) [(١)] .

(وإنْ جنحوا للسَّلْمِ فاجنحْ لها وتوكلْ على اللهِ إنه هـــو الســـميعُ العليمُ) [(٢)] .

---

(١) الآية /١٩٠/ من سورة البقرة .

(٢) الآية /٦١/ من سورة الأنعال .

(وإنْ أحدُ من المشركين استجارَكَ فأجرْهُ حتى يسمعَ كــلامَ اللهِ ثم أبلِغْهُ فأمَنَهُ ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون) [١] .

(عسى اللهُ أنْ يجعَلَ بينكم وبين الذين عاديتم منهم مــودةً واللهُ قديرٌ واللهُ غفورٌ رحيمٌ .

لاينهاكمُ اللهُ عنِ الذين لم يقــاتلوكم فــي الذيــنِ ولــم يخرجوكم من ديارهم أنْ تبَرُّهُم وتُقسِطوا إليــهم إنَّ اللهَ يحــبُ المقسطين)[٢] .

وانطلقَتْ جحافلُ المسلمين كالسيلِ الجــارفِ يكتســحونَ كلَّ ما صادفَهم ويأخذ الغنائمَ ، ويقودون الأسرى حتى خشِيــتَهُمُ الناسُ وتحاشوا الاصطدامَ بهم وذلك ما بين أنقرةَ وعموريــةَ وبينهما سبعُ مراحلَ كانوا يفعلون ذلك حتــى وافــوا عموريــةَ وكان أولَ مَنْ وافاها أشناسُ ، ثم المعتصمُ ثم الأفشــينُ ، لــهم أصواتٌ رهيبةٌ ، ورجةٌ عنيفةٌ ، فلما أصبحوا على مرمى البصرِ منها ضربوا خيامَهم ، وأوقدوا نيرانهم ، وكانَتْ نيراناً عظيمةً لم ترها عموريةُ في تاريخها الطويل .

---

(١) الآية /٦/ من سورة التوبة .

(٢) الآية / ٧-٨ / من سورة الممتنة .

ثم أخذ فرسان المسلمين يدورون حولها وقـــد أمرهــم المعتصم أن يضربوا حولها حصارا محكما،وأن يشدوا الحراســة ولا يد عوا الطير يدخل اليها ، أو يخرج منها ، وشاهد المعتصم على سورها الطويل أبراجا كثيرة ، فجعل لكل قائد مــن قــواده أبراجا منها على قدر أصحابه .

وكان رجل من المسلمين قد وقع أسيرا في أيدي الــروم فتنصر ، فلما رأى المسلمين خرج إليهم وطلب مقابلة المعتصــم ، فأذن له ، فلما اجتمع به أخبره أن موضعا من سور المدينة قد تصدع بسبب سيل أصابه وأنه يمكن اختراقه بيســـر وســـهولة فأمر المعتصم أن تضرب خيمته علـــى ذلــك الموضــع ، وأن تنصب المجانيق أمامه ، ففعلوا ، فتهدم السور من ذلك الموضــع الأمر الذي سهل على المسلمين اختراق المدينة منته بأقل خسارة ممكنة .

بـــدء القـــتال

أمر المعتصم بإعداد دبابات لهدم السور وسلالم للصعود عليه واقتحامه ، ومنجنيقات لرمي الحجارة وقذف كتل النـــيران فلما انهدم السور بدأ القتال على الثلمة ، فكـــان أول مـــن بـــدأ بالحرب أشناس وجنوده وكان المكان ضيقا ، وقد وضع الـــروم كل ثقلهم على تلك الثلمة لحمايتها منع المسلمين مـــن اقتحامـــها وأظهر جنود أشناس شجاعة فائقة ، ولكن ضيـــق المكـــان لـــم يساعِدْهم في اختراقِ تلك الثلمةِ فأقَدَّهُمُ المعتصـــمُ بالمنجنيقـــات التي حول السورِ ، وجعلوا يرمون بها ذلـــك الموضـــعَ وثبـــت المسلمون ثباتاً مشرفاً ، وقاتلوا قتالاً شديداً حتـــى أقبـــل الليـــلُ وفصل بينهم بظلامِهِ .

وفي اليوم الثاني كان القتال على الأفشـــينِ وجنـــودِهِ فأظـــهروا شجاعةً فأئقةً ، وأجادو القتالَ ، وتقدموا نحوَ عدوّهـــم ، وأمـــير المؤمنين المعتصمُ على دابتِهِ بإذاءِ الثلمةِ ، وأشناسُ والأفشـــينُ وخواصُ القـــادةِ والأمراءِ معه ، فقال المعتصمُ: ما أحسَنَ مـــا كان الحربُ اليومَ..!!

وقال عمرٌ الفرغانيُّ: الحربُ اليومَ أجودُ منها أمـــسِ فأمســك أشناسُ عنِ القتالِ حين سمع تلك العبارةَ وأضمرَ له فـــي نفسِـــهِ شيئاً .

وحين خيَّمَ عليهمُ الليلُ بظلامِهِ وفصل بينهم وبين عدوهم وأمسك القومُ عن القتالِ ، وانصرف أشناسُ الى مضربهِ ، ترجَّلَ له القوادُ وأقبلوا نحوه كعادتِهم وفيهمُ الفرغانيُّ ، وأحمدُ بنُ الخليلِ بنِ هشامٍ فقال لهم أشناسُ مُغْضَباً: ياأولاد الزنا ...!! أين تمشون بين يديَّ ، كان ينبغي أمْ تقاتلوا أمس حيثُ تقفون بين يدي أميرِ المؤمنين ، فتقولون الحربُ اليومَ أجودُ منها أمسِ كان يقاتلُ أمسِ غيرُكم...!!

ومضى في توبيخهِم وعتابهِم حتى أزعَجَهم فأسروا له في نفوسِهِم ، وأضمروا له الشَّر والمكيدةَ ، فلما خلَوا بأنفسهِم قال أحدُهُما للأخرِ: ألا ترى الى هذا العبدِ ابنِ الفاعلةِ ، ما صَنَعَ اليومَ ـ يعني بذلك أشناسَ ـ أليس الدخولُ إلى الرومِ أهون من هذا...؟

فقال عمرُ الفرغانيُّ لأحمد: سيكفيكَ اللهُ أمرَهُ عن قريبٍ.

وكان الفرغانيُّ يعلمُ أنَّ مؤامرةً تحاكُ ضدَّ أميرِ المؤمنين المعتصمِ وأنَّ بعضَ القادةِ يوغرون صدرَ العباسِ بنِ المأمون بالتراجعِ عن بيعةِ عمهِ المعتصمِ وتلافي ما كان من تنازلِهِ له عنِ الخلافةِ.

لذلك قال له الفرغانيُّ: سيكفيكَ اللهُ أمرَهُ عن قريب وأشار عليه أن يكونَ مع العباسِ في مؤامرتِهِ على المعتصمِ ـ كما سيأتي إنْ شاء اللهُ تعالى .

دخــولُ عموريـــةَ

في صبيبةِ السادسِ من شهرِ رمضانَ المبـــاركِ كـــانتِ المعركةُ الفاصلةُ ، وفي اليوم الثالثِ من أيامِ الحربِ كـــان دورُ القتالِ على أميرِ المؤمنين المعتصمِ وفرقتِـــهِ وفيـــها المغاربـــةُ والأتراكُ وإيتاخُ أحدُ قوادِ المعتصمِ الأشداءِ .

فاشتبكوا مع الرومِ بقتالٍ قاسٍ وعنيفٍ ، واستطاع بعضُ جنودِ المسلمين أن يوسّعوا هدمَ الســـورِ الأمـــرُ الـــذي جعلـــهم يتحركون بحريةٍ ، ويوسّعون دائرة القتالِ الذي اشتدَّتْ ضراوتُـــهُ ، وحميَ وطيسُهُ ، وتتصامجَ الفرسانُ هنا وهنـــاك ، والســـيوفُ تتوهجُ ، والمنايا تتواثبُ والقتلى يســـقطون ، وفرســـانُ الـــرومِ يتجندلون ، تحت طغيانِ رماحِ المسلمين ، ويتهاوون أمامَ سـيوفِهِمُ الظامئةِ .

في هذه الظرفِ الحاميةِ ، والمعركةُ على أشدِّها عنيفـــةً قاسيةً ضاريةَ ، وقف المعتصمُ يشجعُ جنودَهُ ويلهبُ حماســـتهم ويثيرُ روحَ الشجاعةِ والأستبسالِ في نفوسِهِم ، وكـــان صوتُـــهُ المُغْغَمُ بقوةِ العزيمةِ ، والأملِ في النصرِ يجعلُ من كل جنـــدي من جنودِهِ جيشاً بكاملِهِ فكان جنـــودُ الـــرومِ يتـــهاوَون أمامـــهُ كالذبابِ المترنحِ وتتهادى معهم عصبيتُهُمُ الصليبيةُ التي دفعتـــهم إلى هذا المصيرِ المؤلم ، وأوصلَتْهم إلى هذه النهايةِ المفجعةِ .

/ وما ظلمَهمُ اللهُ ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون / .

كان بطارقة الروم قد اقتسموا أبراج السـور المحيـ
بالمدينة ، وكان البطريق[1] الموكـل بالناحيـة التـي اخترقـ
المسلمون يقال له (وندوا) ومعناه (ثور) فقاتل في ذلك اليوم قتا
شديدا دفاعا عن تلك الثغرة ، وكذلك كان يفعل في الأيام السـابقة
، فلم يمده غيره من البطارقة بجندي واحد إذ كل بطريق كـا
خائفا أن يقتحم المسلمون ناحيته ، فلما كان الليل ذهب ونوا إلـ
قومه فقال لهم ههنا قاعدون تنظرون إلينا كالشامتين ولايجرؤو
أحدٌ منكم أنْ يهبَّ لنجدتِنا ...!! فإن لـم تقـاتلوا معنـا غلَبَنـ
المسلمون ، وسقطتِ المدينةُ في أيديهم ، وكأننا قدمناها لهم لقمـ
سائغةً ، ودخلوها على رقابنا وهاماتنا ...!!

فلم يمدَّهُ أحدٌ بجندي واحدٍ ، وقالوا له: لانمدُّك ولاتمدُّنا

فعزم هو وأصحابهُ على الخروجِ إلى المعتصمِ يسـألو
الأمانَ على الذريةِ ، ويسلمونه الحصنَ بما فيه.

وفي الصباحِ ذهب إلى المعتصمُ يفاوضهُ بأمرِ السـلامِ
وجعل أصحابَهُ أمام الثغرةِ التي كان القتالُ يدورُ حولَها ،
وأمَرَهم أنْ لا يقاتلوا حتى يتركوا فرصةً للمفاوضةِ ، وتوجَّه إلـ
المعتصمِ ليجتمعَ به ، فلما وصل إليه كانت جنودُهُ قد وقفوا أمام

---

(١) البطريق: العظيم من الروم، وقيل: هو الوفيُّ المعجب والبطريـ
بلغة الروم: هو القائد وجمعُهُ بطارقة .

الثغرةِ وقد أمسكوا عنِ القتالِ ، وكان عبدُ الوهابِ بنُ علي بين يدي المعتصمِ يوميٌ الى المسلمين بالدخولِ ، فنظر ونَدوا فشاهدهم يدخلون المدينةَ ، فضرب يدَه على لحيتِهِ ، فقال له المعتصمُ: مالك...؟

قال: جئتُ أفاوضكَ ، فغدرتَ بي .

فقال المعتصمُ: كلُ شيىءٍ تريدهُ فهو لك ، ولست أخالفُكَ

قال: أين تخالُفني ، وقد دخل الناسُ المدينةَ...!!

وجعل جنودُ الرومي يشيرون إليهم لايتمكنون من دفعهم ولم يكترثِ المسلمين بهم ، ثم اندفعوا كالسيلِ الجارفِ وتكاثروا عليهم حتى دخلوا المدينةَ قهراً ، يعلوهمُ التهليلُ والتكبيرُ وتفرقتِ الرومُ عن أماكنِهم ، فأنقضَّ عليهمُ المسلمين يقتلوهم حيثُ وجودهم ، فهربوا أمامهم ولاذوا بكنيسةٍ لهم كبيرةٍ وهائلةٍ فتبعوهم وفتحوها قسراً ، وقتلوا مَنْ فيها ، وأحرقوا عليهم بابَ الكنيسةِ الذي التَهَمَتْهُ النيرانُ فأحرقتِ الكنيسةَ ، ومَنْ فيها ، ولم يبقَ في المدينةِ موضعٌ محصنٌ سوى المكانِ الذي فيه نائبُ الحاكمِ الذي يقال له: (ناطس) أو(مناطس) ، وكان في حصنٍ منيعٍ ، فركب المعتصمُ فرسَهُ وانطلق حتى أصبحَ بإزاءِ الحصنِ فناداه المنادي: ويحك يامناطس هذا أميرُ المؤمنين واقفٌ تِجاهَكَ.

فقالوا: ليس بمناطسٍ هنا .

ثم نوديَ مرةٍ أخرى ، فقالوا: ليس بمناطس ههنا.

ثم خرج مناطسٌ وهو ينادي: هذا مناطسٌ... هذا مناطسٌ فرجع أميرُ المؤمنين ، وأمر بالسلامِ فنُصِبتْ على الحصنِ فتعلق بها بعضُ الفرسانِ حتى ارتقوا الى الحصنِ ، فقالوا له: ويحك يامناطسُ ، انزلْ على حكمِ أميرِ المؤمنين فامتَنَعَ ، ثم خرج من الحصنِ متقلداً سيفاً ، فوثب عليه أحدُ فرسانِ المعتصمِ فوضع السيفَ في عنقِهِ ثم جيءَ به ذليلاً مهاناً حتى أُوقفَ بين يدي أميرِ المؤمنين ، فضربه بالسوطِ على رأسهِ ، ثم أر به أن يساقَ إلى خيمةِ المعتصمِ فأُوثِقَ فيها ، ثم أُخذَ أسيراً إلى بغدادَ .

هذا ... وقد جاء في بعضِ المراجعِ أنَّ المسلمين قتلوا في عمورية أكثرَ من ثلاثين ألفاً ، وأخذوا مغانمَ كثيرةً لا تُعَدُّ ولا توصفُ ، فحملوا منها ما استطاعوا حملهُ وأحرقوا مابقي منها وأمر المعتصمُ بإحراقِ المجانيقِ والدباباتِ وألاتِ الحربِ لئلا يتقوى بها الرومُ على شيئٍ من حربِ المسلمين ، ثم غادر عموريةَ في أواخرِ شهرِ شوالَ سنةَ ثلاثٍ وعشرين ومائتين بعد أن أقاموا فيها خمسةً وعشرين يوماً ، وقيل: خمسةً وخمسين يوماً ... واللهُ أعلم .

شعر أبي تمامٍ في يومِ عموريـــة

قدم الخطباءُ والشعراءُ على أمـــير المؤمنيـــن يهنئونــه بالنصرِ العظيمِ ، والفتحِ المبينِ وألقوا بين يديه الخطبَ البليغـــةَ والكلماتِ الرائعةَ ، والقصائدَ الفخمةَ ، فتكلموا وأجادوا ومدحــوا فبالغوا ، وارتجلوا الشعرَ فأحسنوا ، وكانَّ المجلسَ قد تحولَ إلــى منتدىً أدبيٍ ، وميدانٍ الى التنافسِ في المدحِ والثنـــاءِ وتبــادلِ الكلماتِ الفصيحةِ والخطبِ الرنانةِ ووصـــفِ أمـــير المؤمنيـــن المعتصمَ بالبطولةِ والشهامةِ ، والشرفِ والنبلِ والكرمِ والشـجاعةِ وفي تلك المناسبةِ قال أبو تمامٍ ، حبيبُ بنَ أوسٍ الطـــائي وهــو يمدح أميرَ المؤمنين المعتصمَ الذي ثأرَ للمســلمين مــن الــرومِ وأغاثَ النساءَ اللواتي نادينهُ واستغثْنَ به ، وأعاد لهن الشـــرفَ والكرامةَ والثقةَ بالنفسِ وأثلجَ صدورَ المسلمين جميعاً ، وأعـــاد لهمُ الأملَ والأمانَ ، والسلامةَ والاطمئنانَ .

وكَذَّب المنجمين الذين قالوا: إن المعتصمَ لن يقدرَ علـــى فتــحِ عموريةَ وأقنعوا ملوكَ الرومِ بذلك ، وحين أتتهُمُ الأخبــارُ بأنــه زاحفٌ إليها ليفتحَهَا راسلوه يقولون: إنا نجدُ أنّ مدينتنا لاتُفتَحُ إلا في وقتِ إدراكِ العنبِ والتينِ وبيننا وبين ذلك الوقـــتِ شـــهورٌ يمنعُكَ من المقامِ بها الثلجُ والبردُ .

فأبى أن ينصرفَ وأكُدَّ عليها حتى فتحها وأبطَلَ ما قالوا ولذلــك قال أبو تمامٍ يكّذِبهم ، ويُبطلُ أقوالهم:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ... في حّدِه الحدُّ بين الّجدِ واللِعبِ
بيضُ الصفائحِ لاسودُ الصحائف في ... متونِهنَّ جلادُ الشكِ والّريَبِ
والعلمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامعةً ... بين الخميسين لافي السبعةِ الشهبِ[1]
أينَ الروايةُ بل أين النجومُ وما ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذبِ[2]
تخرصــاً وأحاديثــاً ملفقةً ... ليستْ بنبعٍ إذا عُدَّتْ ولاغَرَبِ[3]

---

(١) الخميسان : الجيشان ، وإنما سُمّيَ خميســاً ، لأن الملــوك فــي بعضِ الأزمنةِ كانوا إذا قاموا بغزوةٍ وانتصروا وأخذوا خُمْسَ الغنيمة والسبعة الشهب: الطوالع التي أرفعها زحَلُ وأدناها القمر .

(٢) الزخرف في الاصل: ما يعجبك من متاع الدنيا ، ويقال للقول المحسَّنِ المكذوب زخرف لأنه حُسّنِ ليفرّ .

(٣) التخرص: التكذب وافتراء القول، والنبع: شجر صلب ينبت في رؤس الجبال تتخذ منه القسيُّ ، وإذا وصف الرجل بالجادة والصبر شُبّهَ بالنبع ، أي أنه صلب لا يقدر على كسره والغرب: شجر ينبت على الأنهار ليست له قوة. يريد أن هذه الأحاديث ليست بقوية ولا ضعيفة، أي هي غير شيء

عجائباً زعموا الأيامَ مُجفِلَةٍ عنهُنَّ في صِغَرِ الأصغارِ أو رجبِ[1]
وخوّفوا الناسَ من دهياءَ مُظلمةٍ إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذنبِ[2]

وفي ذلك يقول الإمام الشافعي رضي اللهُ عنه:

لعمرك ما تدري الضواربُ بالحصى ولازاجراتُ الطيرِ مااللهُ صانعُ

فسلهُنَّ هل يدرين علماً متى الفتى يلاقي المنايا أو متى السيل واقعُ

---

(١) مجفلة : ويروى مجلية: يقال أجفلت الحمر والنعام إذا أحس إذل أحسَّتْ بأمرٍ يخيفها فهربتْ منه بعجلةٍ ورعبٍ .ويقالُ: أجلى القوم عنِ القتيلِ إذا انكشفوا عنه.

وصغر الأصغار: وهو شهرُ صفر، عظَّمَ أمَرهُ لأنه ينتَظرُ منه أمرٌ شاقٌ ، كما يقالُ: فلانٌ فارسُ الفرسان، أي أشدهم بأساً أي أنهم أخبروا أن أموراً تظهرُ في شهر صفر أو رجبَ ، وأن الأيامَ سَرِع في إظهارها .

(٢) دهياءُ : أي داهيةٌ ، يقالُ: داهيةٌ يتبع دهياءٌ ودهواءُ، وكانوا قد حكموا أن طلوع ذلك الكواكب الموصوف بذي الذنبِ يكونُ فتنةً عظيمةً وشدائد كثيرة ، وتغيُّرَ أمرٍ في البلاد، فأنكر الطائي ذلك من أحكامهم انتهى... من شرح ديوان أبي تمام للتبريزي بتصرفٍ .

وصَيّروا الأبراجَ العُليا مرتّبة ما كان منقلباً أو غيرَ منقلبِ[1]

يقضون بالأمرِ وهي غاملةٌ مادرا في فلكٍ وفي قطبِ[2]

لو بيّنتْ قطُّ أمراً قبلَ موقِعِهِ لم تُخفِ ما حلّ بالأوثانِ والصُلبِ[3]

فتحُ الفتوحِ تعالى أن يحيطَ به نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخطبِ

فتحٌ تفتّحُ أبوابُ السماءِ له وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ[4]

يا يومَ وقعةِ عموريةَ انصرَمَتْ منكَ المنى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ[5]

---

(١)الأبراج: هي بروج السماء التي أَلُها الحَمَــلُ وآخرهــا الحــوت، وقوله: (منقلباً أو غير منقلبٍ) أي أن المنجمين في الــــبروج منقلبــاً وثابتاً ، ويربطون أخبارهم بهذه البروج إذا ورد عليهم خبر في وقتٍ الطالعُ فيه برجٌ ثابتٌ حققوه ، وإن كان الطالعُ برجاً منقلباً لم يحققوه.

(٢)أي أنهم يحكمون عليها بأحكامٍ مختلفةٍ ، وهي لاتعرفُ شيئاً مــن ذلك ، وما يحكمون به لم يَدُرْ في فَلَكٍ منها ولاقطب .

(٣)يقولُ: لو بان بهذه البروج أمرٌ قبل حدوثهِ لبانَ أمرُ هـــذا الفتــحِ الذي لم يكنْ فتحٌ أجلَّ منه .

(٤)أي أن الفتحَ تفتحُ له أبوابُ السماءِ بالغيثِ والرحمـــةِ ، أو انــزالِ النصر من الله تعالى لعبادهِ المؤمنين، والقُشُبُ: جمع قشيبٍ ، وهـــو الجديد .(٥) حُفَّلٌ: جمع حافلٍ وهي التي حَفَلَ ضرعُها باللبنِ ، وهـــو ههنا مستعارٌ للمنى ، والمعسولةُ : التي فيها العسلُ ، والحَلَـــبُ: مــا حُلِبَ من اللبنِ وهو مستعارٌ .

أبقيتَ جدَّبني الإسلامِ في صَعَدٍ والمشركين ودارَ الشركِ في صَبَبِ[١]

الى أن قال:

لقد تركتَ أميرَ المؤمنين بها للنارِ يوماً ذليلَ الصخرِ والخَشَبِ[٢]

غادرتَ فيها بهيمَ الليلِ وهو ضحىً يَشلُّهُ وَسْطَها صبحٌ من اللهبِ[٣]

حتى كأنَّ جلا بيبَ الدُّجى رغِبَتْ عن لونها وكأنَّ الشمسَ لم تغِبِ[٤]

ضوءٌ من النارِ والظلماءُ عالقةٌ وظلمة من دخانٍ في ضحىً شحبِ[٥]

---

(١)الجدُّ: الحظُ ، وبنو الإسلام: أبناؤهُ الذين يدخلون فيه ويُنسبون إليه والصَّعَدُ: المكان الذي يُصعَدُ فيه ، والصَّبَبُ : المكان الذي يُنصَبُ فيه أن يُنحدرَ ويقالُ لها : الصَّعودُ والصَّوبُ

(٢) أي تركت يوماً ذليلاً صخرُهُ وخشبُهُ ، والغرضُ أنها أحرقَتْ فذلَّ صخرُها وخشبُها للنارِ .

(٣) غادرتَ: تركتَ ، والبهيمُ: الليلُ الذي لاضوءَ فيه ، ويشُلهُ: أي يطرُدُهُ ، أي كان ضوءُ النارِ يطردُ الليل ، وهو كالإصباحِ لتوقُّدِهِ وتلهُّبِهِ .

(٤)جلابيبُ الدُّجى: الجلابيبُ جمعٌ جلبابٍ، وهو القميصُ أو الرداءُ واستعاره ههنا للدُّجى وهو جمعُ وجيهٍ ، والدُّجيةُ: الظلمةُ .

(٥)شحِب: كلمةٌ قليلةٌ ، وإنما الكلامُ شاحبٌ ، أي متغيّرٌ ، المعنى : أنَّ ضوءَ النارِ يصيّرُ الليلَ نهاراً ، وظلمةَ الدخانِ تصيّرُ الضُحى شحباً، أي متغيراً .

ويتابعُ أبو تمام قائلاً:

تدبيرُ معتصمٍ باللهِ منتقمٍ ... للهِ مرتقبٍ في اللهِ مرتَقبِ

لم يغزُ يوماً ولم ينهدْ الى بلدٍ ... إلا تقدمَهُ جيشٌ من الرُّعُبِ

لو لم يقُدْ جحفلاً يومَ الرغى لَغَدا ... من نفسِهِ وحدَها في جحفلٍ لجبِ

رمى بكَ اللهُ بُرجَها فهدَّمَها ... ولو رمى بكَ غيرُ اللهِ لم يُصِبِ

لبيتَ صوتاً زِبَطْرِياً هرقتَ له ... كأسَ الكرى ورُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ[1]

أجبتَهُ معلناً بالسيفِ منصلتاً ... ولو أجبتَ بغيرِ السيفِ لم تُجبِ

حتى تركتَ عمودَ الشركِ منعفراً ... ولم تُعَرِجْ على الأوتادِ والطُنُبِ

إلى أنْ قال:

والحربُ قائمةٌ في مأزِقٍ لَجِجٍ ... يجثو القيامُ به صغراً على الركَبِ

كم نيلَ تحت سناها من سنا قمرٍ ... وتحتَ عارِفيها من عارضٍ شنِبِ

كم كان في قطعِ أسبابِ الرقابِ لها ... الى المنحدرةِ العذراءِ من سببِ

كم أحرزَتْ قُضُبُ الهندي مصلتةً ... تهتزُّ من قضبٍ تهتزُّ في كُعُبِ

بيضٌ إذا انْتُضِيَتْ من حجبِها رَجَعَتْ ... أحقُّ بالبيضِ أتراباً من الحُجُبِ

---

(١)زِبَطري: منسوبٌ الى زِبَطرةَ ، وهي المدينةُ التي غزاها الرومُ فبلغ المعتصمَ أن امراءةً قالت وهي مسبيةٌ: (وامعتصماه) فنقلُ إليه قولُها وكان في يدهِ قدحٌ يريدُ أن يشربَ ما فيه فوضعه وأمر أن يُحفَظَ القدحُ ، فغزا عموريةَ فلما رجع من فتحها شربَ . والله أعلم والخرد: جمع خريد وخريدة وهي الحبيسة ، والعُربُ: جمع عَروب وهي المحببة إلى زوجها .

ثم ختم قصيدته بالدعاء للمعتصم وما أبلى في يوم وقعة عمورية من بلاء حسن ، وما أظهر من بطولة ، وما قدم للدين والأمـــة من خدمة جليلة وتضحية عظيمة

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والأسلام والحسب[١]

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

إن كان بين صروف الدهر من رجم موصولة أو ذمام غير منقضب[٢]

مبنين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب[٣]

أبقت بين الأصغر المعرض كاسهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب[٤]

---

(١) ويروى : كافا الله سعيك ، وجرثومة الشيئ أصله .

(٢)صروف الدهر : أحداثه لانكباته لأن انتصار المسلمين في بـــدر وعمورية من الأحداث العظيمة .

(٣) بدر: اسم لمعركة بدر التي انتصر النبي صلى الله عليـــه وسـلم فيها على المشركين . انتصارا ساحقا وهي أول صـــام مسـلح بيـــن المسلمين والمشركين .

(٤) بنو الأصغر: هم الروم ، والممرض : الكثير المرض ، وقولـــه: كاسمهم ، يريد اسم أبيهم على الحجاز ، لأنهم إذا ذكروا قيل: بنـــو الأصغر فعرفوا بذلك فصار كالاسم لهم . والله أعلم... بتصرف مـــن شرح ديوان أبي تمام للتبريزي .

التآمر على المعتصم

ذلك أن عجيف بن عنبسة كان قد نقم علـى المعتصـم حين وجهه إلى بلاد الروم إذ لم يطلق يده في النفقات كما أطلقت يد الأفشين ، فجعل يؤلب العباس بن المأمون ويوغـز صـدره على عمه المعتصم ، ويعاتبه على تنازله له عن الخلافة وتـآمر مع بعض القادة على مبايعة العباس وخلع المعتصم أو قتله ، ولم يزل عجيف بالعباس يوغر صدره ويحثه علـى خلـع الطاعـة وتلافي ما كان حصل منه من التنازل عن الخلافة حتـى قبـل العباس ذلك ، ودس رجلا يقال له (الحارث السمرقندي) وكـان العباس يثق به فجعله معاونه الأول ورسوله إلى بعـض قـواد الجند ، فجعل يتصل بهم حتى استمال عددا من القواد ، وعـددا من خواص المعتصم فاتفقوا معه وبايعوه على تنفيذ مؤامراتـهم وقال لهم الحارث: إذا أظهرنا أمرنا فايثب كل منكم على قـائده ووكل من بايعه من خواص المعتصم بقتله ، ومن بايعـه مـن خاصية الأفشين بقتله ، ومن بايعه من خاصية أشـناس بقتلـه وتضامنوا على ذلك وتعاهدوا عليه ، ثم انفضوا وهم مجمعـون على ذلك .

فلما كانوا في طريقهم إلى عمورية لقتال الـروم أشـار عجيف على العباس أن ينفذ ما اتفقوا عليه فيثب على عمه فيقتله ، ويرجع بالناس إلى بغداد فإنهم يفرحون بعودتهم إليها وعـدم

متابعةِ سيرِهِم للقتالِ مع الرومِ ، فأبى العباسُ ذلك ، وقـال: لا أفسد هذه الغزاةَ .

فلما فرغوا من واقعةِ عمورية عاد عُجَيفٌ إلى الإلحـاحِ على العباسِ بقتلِ عمِهِ ، فقال له: ياناائمُ...! قد فُتِحَتْ عموريـةُ وما يمنعُكَ أن ترسلَ رجالاً ينهبون بعضَ الغنائم ، فإذا بلَغَهُ ذلـك ركب في سرعةٍ ، فتآمرَ بقتلِهِ هناك .

فأبى عليه ، وقال: ننتظرُ ذلك في الطريقِ ويخلوا كمـا كان أولَ مرةٍ ، وهو أمكنُ منه ههنا .

وكان عُجَيفٌ قد أمر مَنْ يقومُ بسرقةِ المتاعِ ففعلوا فجـاء المعتصمُ مسرعاً وسكن الناسُ ، ووقف العباسُ لم يفعـلْ شـيئاً ولم يُشِرْ إلى أحدٍ من الذين واعدَاهم ، وهم كرهوا قتلَ المعتصـمِ بغيرِ أمرِ العباسِ .

هذا وكان قد تسرَّب نبأُ المؤامرةِ إلى المعتصمِ فأسَّرهُ في نفسِـهِ وأخذ بالحيطةِ والحـذرِ ، وأمَـرَ بـالتيقظِ وتشـديدِ الحراسـة واستدعى الحارثَ السمرقنديَّ فستقَّرهُ فعترف له بحقيقةِ الأمـرِ وأخذِ البيعةِ للعباسِ بنِ المأمونِ من عددٍ من الأمـراءِ والقـادةِ وذكر له أسماءَهم فاستكثرهُمُ المعتصمُ ، واستغرب منهمُ الغـدرَ والخيانةَ والتآمُرَ وهم يمرون بظروفٍ صعبةٍ وقاسيةٍ ويواجـهون عدداً لئيماً شرساً ربما تفَّوقَ عليهم إنْ هم أقدموا علـى فعلِهِم وغدروا بأميرِهِم ...! !

نهايةُ العباسِ بنِ المأمونِ

وأطرافِ المؤامرةِ

أحاط المعتصمُ بتفاصيلِ المؤامرةِ ، وعلم جميعَ أطرافِها فاستدعى العباسَ بنَ المأمونِ ، فأخذهُ وقيَّدَهُ ودفع به إلى الأفشينِ ليحبسَهُ عنده .

وأخذ يتتبعُ بقيةَ أطرافِ المؤامرةِ حتى قبض عليهم جميعاً ، وأمر بحملهمِ على بغالٍ بلا وطاءٍ ولاسُرُجٍ ، وأخذ الشاهَ بنَ سهيلٍ وكان من أهلِ خرا سان ، فجعل يوبخُهُ ويقول له: يا ابنَ الزانيةِ أحسنتُ إليك فلم تشكرْ...؟

فقال ابنُ سُهَيلٍ: ابنُ الزانيةِ هذا ، وأشار الى العباسِ وكان حاضراً ، لو تركني ما كنتَ الساعةَ تقدرُ أن تجلسَ هذا المجلسَ ، وتقول هذا الكلامَ...!!

فغضب المعتصمُ وأمر بضربِ عنقِهِ ، وكان أولَ مَنْ قُتلَ منهم .

فلم نزل الجيشُ منبجَ طلب العباسُ الطعامَ فقُدِمَ إليه طعامٌ كثيرٌ ، فأكل ومُنِعَ الماءَ ، فمات ،وصلى عليه بعضُ إخويهِ .

وأما عمرُ الفرغانيُّ فقد أمر المعتصمُ أنْ يحفروا له بئراً حين وصلوا الى نصيبينَ ، فألقاه فيها وطمَّها عليه .

وأما عُجَيفُ بنُ عنبسةَ فقد مات قريبـاً مـن الموصـلِ

وقيل: قُدّمَ له طعامٌ كثيرٌ ومُنِعَ الماءَ حتى مات .

وأخذ يتبعُهمُ الواحدَ بعد الآخرِ حتى استأصلَهم جميعاً .

ظهورُ أمر مازيّار

كان مازيّارُ بنُ قارن قد ظهر أمرُهُ بطبرستانَ وخـــرج على أميرِ المؤمنين المعتصمِ وعصى أمرُ وقاتلَ جنودَهُ .

فلما ظفرَ الأفشينُ ببابَكَ الخُرّميّ ، ولمـــع نجمُـــهُ عنـــد المعتصمِ ، وانتشر خبرُهُ في الأمصارِ طمع في ولايةِ خراســـانَ فأراد أن يستعينَ بمازيّارَ ليكونَ عوناً له وسيفاً يضربُ به مَـــنْ خالفهُ .

فكتب إليه الأفشينُ يستميلُهُ ، ويظهرَ له المودةَ ومُعلمُـــهُ أنّ المعتصمَ قد وَعَدَهُ ولايةَ خراسان .

فكان ذلك عاملاً لحملِ مازيّارَ على خـــلافِ المعتصـــمِ وترْكِ طاعتِهِ ، وامتناعِهِ بجبالِ طبرستانَ واستقلالِهِ بها ، فكتـــب المعتصمُ الى عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ يأمرهُ بمحاربتِهِ والقضـــاءِ عليـــه ومن جانبٍ آخر كتب الأفشبنُ الى مازيّار يأمرهُ بمحاربةِ عبـــد اللهِ بن طاهرِ وطكأنَهُ أن يكون له عند المعتصمِ كما يحبُّ .

فأطمأنَّ مازيّارُ الى وعودِ الأفشـــينِ البراقـــة وأعرَتْـــهُ كلماتُهُ المعسولةُ فأعلنَ مخالفةَ أمرِ المعتصمِ ودعا النـــاسِ الـــى بيعتِهِ ، فمنهم مَنْ بايَعَهُ طواعيةً ومنهم مَنْ بايَعَهُ كرهاً ، وأخـــذ رهائنَ من المسلمين فسجنهم وأمر أتباعَهُ بقطعِ الطريقِ وســـرقةِ الأموالِ ، ونهبِ القرى ، ونشرِ الخوفِ والذعرِ بين الناسِ وكـــان

مازيّارُ أيضاً يكاتبُ بابَكَ الخرميَّ وكأنه كان على مذهبِهِ البـاطلِ وعقيدتِهِ الفاسدةِ .

ولقدِ اهتمَّ مازيّارُ بجمعِ الأمـوالِ ، وتعجيـلِ الخـراجِ فجمع في شهرين ما كان يُجمَعُ من سنةٍ ليغريَ جندَهُ ويضمـنَ ولاءَهم ، فلما اطمأنّ الى ذلك أمَرَ قائداً يقالُ لـه (سرخاسـتان) الذي انطلق يعيثُ في الأرضِ الفسادَ ، ويقطعُ الحرثَ والنسـلَ ويهدِمُ المنازلَ ، ويدكُّ الحصونَ ، ويخربُ الأسوارَ حتى خشـيَه الناسُ وفَرّوا منه ، فلمّا استفحل أمْرُهُ وبلغ المعتصمَ وجَّهَ إليـه محمدَ بنَ إبراهيم بن مصعبٍ ومعه الحسنُ بنُ قـارنٍ الطـبريُّ ووجَّهَ المنصورَ بنَ الحسنِ الى الرّي ليدخلَ منها الى طبرسـتان ، ووجَّه أيضاً أبا الساجِ الى اللارزِ ودُنباوندَ ، وهكـذا أحدقَـتِ الخيلُ برخاستِان من كل جانبٍ فاقتحموا عليه السـورَ ونصبـوا عَلَمَ الحسنِ بنِ الحُسَينِ على معسكرِ سرخاستان وتدفعتْ خيـولُ المسلمين بسرعةٍ فائقةٍ دون أن يقفَ في طريقـهم أحـدٌ حتـى استولوا على معسكر سرخاسـتان ، وأسـروا أخـاه شـهريارَ وهرب سرخاستان حافيا حتى أجهده العطـش وأعيـاه التعـب وامتنع من كان معه من أصحابه أن يعطوه قطرة مـاء واحـدة فقال لغلام له اسمه جعفر: ياجعفر اسقني ماء فقد هلكت عطشا .

فقال: ليس عندي ما أسقيك فيه .

ثم اجتمع جعفرُ هذا ببعضِ الجندِ فقال لهم: هذا الشيطانُ قد أهلكنا ، فلم لا نتقربُ به الى السلطانِ ونـــأخذُ لأنفســـنا منـــه الأمانَ...؟

فقال لهم: خذوا مني مائةَ ألفِ درهمٍ واتركوني فإنَّ ملـكَ العربِ لايعطيكم شيئاً ، فلم يحفلوا به وأخذوه الى بعضِ جيـــشِ الخليفةِ ، فلقيتهم خيلُ الحسنِ بنِ الحسينِ ، فضربوهـــم وأخـــذوه منهم وأتو به الحسن، فأمر به فقُتِلَ وأرسلَ رأسهُ الى عبــــدِ اللهِ ابنِ طاهر ، وأمر أيضاً بقتلِ أخيه شهريارَ .

وجعل الحسنُ بنُ الحســــينِ ، وعبــدُ اللهِ بـــنُ طـــاهر وغيرُهما من أمراءِ المعتصمِ وقوادهِ يتبعون أصـحــابَ مازيّـــارَ حتى استأصلوهم جميعاً ، فغضب مازيّارُ لذلك غضبـــاً شـديداً وأصيبَ بالاحباطِ ،وشعر بالفشلِ والخيبةِ فأطلق ســراحَ جميـعِ الأسرى من جنودِ الخليفةِ والعمالِ والفلاحين من أهلِ الأمصـــارِ ليستحلَ قلوبهم ، ويضمنَ ولاءَهم إن حدثَ وتفاقمَ الأمرُ وانقلـــب عليه .

القبضُ على مازيّارَ

بعد معاركَ كثيرةٍ أُلقيَ القبضُ على مازيّـــارَ ذلــك أن الحسنَ بنَ الحسين كان يلاحظهُ من مكانٍ لآخرَ حتى ظفــرَ بـــه صدفةً في طريقِ (لورةَ) وكان الوقتُ ليلاً .

يقولُ أحدُ رجالِ الحسنِ: وأقبل الليلُ وإذا بفرسانٍ بيـــن أيديهُمُ الشمعُ مشتعلاً مقبلين من طريقِ (لورةَ) فقال الحسنُ: أيـن طريقُ لورةَ...؟

فقلتُ: أرى عليه فرساناً ونيراناً ، وأنا داهــشٌ لا أقــفُ على حقيقةِ الأمرِ ، حتى قرُبتِ النيرانُ ، فنظرتُ فإذا المازيّـــارُ مع القوهيارِ وبعضِ الجندِ ، فأمر الحسنُ رجلين مـــن أصحابــهِ فقبضا عليه ، وأرسله معهما الـــى أمـــيرِ المؤمنيـــنَ المعتصـمِ ومضى الحسنُ ومَنْ معه الى قصرِ مازيّـــارَ فأحرقَـــهُ وأبنـــاءَه أسرى .

وجاء في بعضِ الرواياتِ أنَّ مازيّارَ كان في الصيدِ فلم يشعُرْ إلا والخيلُ تحيطُ به ، فقبض عليه الجندُ وأخذوه الى عبـــدِ اللهِ بنِ طاهرٍ ، الذي جعل يحققُ معه ، ويسألهُ عن مراسلاتِهِ مع الأفشينِ ، ووعَدَهُ إن هو أظهرها له أن يسألَ له الصفحَ عنه عند المعتصمِ فأمَرَّ مازيّارُ بها وأطلَقَهُ عليها ، فأخذها عبـــدُ اللهِ بـــنُ طاهر ، وأرسلها هي ومازيّار مع إسحاقَ بنِ إبراهيمَ ، وأمـــره أن لايسلمها إلا لأميرِ المؤمنين ، ففعل إســـحاقُ ذلــك ، فســـأل

المعتصمُ مازيّارَ عنِ الكتبِ فأنكرها فضربه بالسوطِ حتى مــات وصلبه الى جانبِ بابكَ ، والله أعلمُ.

وقيل غيرُ ذلك كما سيأتي في الفصلِ التالي أنْ شــاء اللهُ تعالى .

القبضُ على الأفشينِ

تقدم أن الأفشينَ كان الساعدَ الأيمن للمعتصمِ والسـيفَ البتارَ الذي يضربُ به ، وقد وضع المعتصمُ فيـه كـلَّ الثقـةِ وأولاه جميعَ الأمورِ ، وأطلق يدَهُ في كلِ شيئٍ ، حتى غدا كأنـه أمينُ أسرارهِ ، وأوليٌّ عهدِهِ من بعدِهِ...!

فكفر الأفشينُ النعمةَ ، وجحد الفضلَ ، وتنكّـرَ للجميـلِ واستبدل بالنعمةِ جحوداً وبـالفضلِ تـأمراً وبـالجميلِ عـداوةً وبالإحسانِ إساءةً إنتصاراً لمجوسيتِهِ وتمسكاً بكفـرهِ ، وتـأمراً على الإسلام وأهلِهِ ، وغدراً باليدِ التي مُدَّتْ إليـه بـالمعروفِ والإحسانِ ، وطعناً بصاحبِها من الخلفِ ، ومكـرَ السـيءِ ولا يحيقُ المكرُ السيءُ إلا بأهلِهِ .

وما هذه النتيجةُ السيئةُ إلا بسبب ثقةِ المعتصمِ المطلقـةِ بالأفشينِ وهو فارسٌ مجوسيٌّ منتصرٌ لأبناءِ جنسِهِ من الكفـرةِ عبدةِ النارِ ، يعملُ في الخفاءِ ليعيدَ مجدَ فارسَ ، ويثبـتَ ديـنَ المجوسِ ، ويقضيَ على دينِ الإسلام ، وعندما يوكَلُ الأمرُ لغيرِ أهلِهِ ، ويقومُ الغرباءُ والمرتزقَةُ والطامعون من كلِ لونٍ بحمايـةِ دولةٍ ما أواللاإشرافِ على أمورِها ، تصيرُ هذه الدولةُ لعبةً فـي أيديهم ، يتحكمون فيها كما يشاءون ، ويتصرفون بمقدراتِها كمـا يريدون ، وهذا ما حصل للعباسـيين حيـن فضلـوا العنصـرَ الفارسيَّ والتركيَّ ، وأسندوا إليهم وظائفَ سياسـيةً وعسـكريةً

هامةً وأبعدوا العربَ عنها وهم حملةُ أعباءِ هذه الرسالةِ الإنسانية ، والمسئولون عنها أمام اللهِ تعالى: (وإنه لَذكرٌ لــــك ولقومِــكَ وسوف تسألون)[1] . صدق اللهُ العظيم .

ولقدِ استغلَّ الأفشينُ مركزَهُ القياديَّ ، ومكانتهُ من أمــيرِ المؤمنين المعتصمِ لمصلحتِهِ ومصلحةِ ديانتِهِ المجوســـيةِ تمــامَ الأستغلالِ ، فكانتِ الأموالُ والهدايا تأتيهِ من أرمينيةَ وأَذَرْبيجــانَ فيوجُهها إلى (أشروسْنَةَ) حتى إذا طال عليه الأمـــدُ ، ومضـــى على فعلِهِ هذا فترةٌ طويلةٌ اكتشفَ الأمرَ عبدُ الله بنُ طاهرٍ الـــذي كانت تلك الأموالُ والهدايا يمرُّ به ، فأخبر عنها المعتصم الـــذي كتب إليه يأمُرُهُ بإعلامِهِ بجميعِ ما يحدثُ من طـــرفِ الأفشـــينِ فكان ابنُ طاهر يراقبُ تحركاتِ جندِ الأفشينِ في ذهابهم وإيابِــهِم ، ولربما اعترضهم أحياناً فيراهم محَّملين بالأموالِ الوفيرةِ التـــي لم يصلْ منها شيئٌ إلى المعتصمِ فكتب ابنُ طاهرٍ إلى الأفشـــين يستفهمُ منه حقيقة تلك الأموال ، فردّ عليه الأفشينُ يقولُ: معـــاذَ اللهِ ، إنَّ مالي ومالَ أميرِ المؤمنين واحدٌ ، وسأله إطـــلاقَ قـــومٍ كان ابنُ طاهرٍ قد أسرهم في بعضِ المناوشاتِ ، فاستجاب لــــه فأطلقَهمُ ، فكان ذلك سببَ الخلافِ بينهما .

---

(١) الآية /٤٤/ من سورة الزخرف .

واستمرَّ عبدُ الله بنُ طاهرٍ بتتبُعِ الأفشين حتى علم أنـــــه على اتصالٍ دائمٍ بمازيّار ، وأن مصلحةً مشتركةً تجمعُ بينـــــهما فأخبر ابنُ طاهرٍ المعتصمَ بذلك فتحقق من الأمرِ بنفسِـــهِ فـــأمر بالقبضِ عليه ، ثم أُحضرَ بين يديه وأُعِدَّ له مجلسٌ للتحقيقِ فيــــه محمدٌ بنُ عبدِ الملكِ الزياتِ وزيرُ المعتصم ، وأحمدُ بـــنُ أبــي دؤادَ قاضية ، وإسحاقُ بنُ إبراهيمَ ، وغـــيرُهم مــن الأعيــانِ ورجالِ الدولةِ وأمرَ المعتصـــمُ بإحضــارِ مازيّــارَ ، والمؤيــدَ والمرزبانِ بنِ بركش ، وهو أحدُ ملوكِ السُّغْدِ ، ورجلين من أهلِ السُّغدِ فأدخلَ الرجلان وعليهما ثيابٌ رَثّةٌ وتولّى التحقيق الوزيـــرُ الزياتُ ، فقال للرجلين: ما شأنكما...؟

فكشفا عن ظهورِهِما ، فقال للأفشينِ: أتعـــرفُ هذيـــن الرجلين...؟

قال: نعم ، هذا مؤذنٌ وهذا إمامٌ يعنى مِسجداً بأشروسـنةَ فضربتُ كلَّ واحدٍ منهما ألفَ سوطٍ ، وذلك أنَّ بيني وبين ملــكِ السُّغدِ عهداً وشرطاً أن أتركَ كلَّ قومٍ على دينهِم ، فوثبَ هــذان على بيتٍ كان فيه أصنامُ أهلِ أشروسنةَ فأخرجا الأصنام وجعلاه مسجداً ، فضربتُهما عل هذا .

قال الوزيرُ بنُ الزياتِ: ماكتابٌ عندك قد حلّيتَهُ بـــالذهبِ والجوهرِ فيه الكفرُ باللهِ تعالى...؟

قال: كتاب ورثته عن أبي فيه من آداب العجم وكفرهم فكنت آخذ الآداب وأترك الكفر ، ووجدته مجلى ، فلم أحتج الى أخذ الحلية منه ، وما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام .

ثم تقدم الموبذ فقال: إن هذا يأكل لحم المخنوقة ويحملني على أكلها ، ويزعم أنها أفضل من المذبوحة وقال لي يوما: قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيئ أكرهه ، حتى أكلت الزيت ، وركبت الجمل والبغل غير أني الى هذه الغاية لم تسقط عني شعرة [1]، ولم أختتن .

فقال الأفشين: أخبروني عن هذا أثقة هو في دينه...؟ ـ وكان مجوسيا .

قالوا: لا .

قال: فما معنى قبول شهادته...؟

ثم أخذ يحاجج الموبذ فقال له: أليس كنت أدخلك علي وأطلعك على سري...؟

قال: بلى .

قال: لست بالثقة في دينك ، ولا بالكريم في عهدك إذا أفشيت سرا أسررته إليك .

ثم تقدم المرزبان فقال: كيف يكتب إليك أهل بلدك...؟

---

(١) يعني أخذ شعر العانة .

قال: لا أقولُ .

قال: أليس يكتبون بكذا... وكذا...؟

قال: بلى .

قال: أليس تفسيرُه بالعربيةِ: الى إله الآلهةِ مـــن عبـدِهِ فلانِ بنِ فلانٍ...؟

قال: بلى .

فقام الوزيرُ بنُ الزياتِ فقال: المسلمون لايحتملون هــذا فما أبقيتَ لفرعونَ...؟

قال: هذه كانتْ عادتهَم لأبي وجدّي ولي قبــل أنْ أدخـلَ فـي الإسلامِ ، فكرهتُ أن أضعَ نفسي دونهم فتفسدَ عليَّ طاعتُهم . ثم يقدمَ مازيّارُ ــ هذا بناءً على الرواية المخالفةِ للروايةِ السـابقةِ التي تقدمَتْ معنا بآن أميرَ المؤمنين ضربَهُ بالسوطِ حتى مـات وهذه الروايةُ تقولُ بأنه مازال حياً... واللهُ أعلم...؟

فقالوا للأفشينِ: هل كاتبتَ هذا...؟

قال: لا .

قالوا المازيّارَ: هل كتب إليك...؟

قال: نعم كتب أخوه الى أخي قوهيارَ أنه لم يكنْ ينصـُـرُ هذا الدينَ الأبيضَ غيري وغيرُك ، فأما بابَكُ فإنه لحمقِـهِ قتـل نفسه ، ولقد جهدْت أنْ أصرفَ عنه الموتَ فأبى لحمقـهِ إلا أن أوقَعَهُ فإن خالفتَ لم يكنْ للقومِ مَنْ يرمونك به غيري ، ومعـيَ

الفرسانُ وأهلُ النجدةِ ، فإن وجّهتُ إليكَ لم يبقَ أحدٌ يحارِبُنـا إلا ثلاثةٌ: العربُ والمغاربةُ ، والأتراكُ .

والعربي بمنزلةِ الكلبِ واطرح له كسرةً واضرب رأسهُ ، والمغاربةُ أَكَلَةُ رأسٍ ، والأتراكُ ، فإنما هي ساعةٌ حتى تنفذ سهامُهُم ، ثم تجولُ الخيلُ عليهم جولةً فتأتي على آخرِهِم ويعودُ الدين الى مالم يزلْ عليه أيامَ العجمِ .

فقال الأفشينُ: هذا يدّعي أنَّ أخي كتب الى أخيه لا يجبُ عليَّ ، ولو كتبتُ هذا الكتابَ إليه لأستميلَهُ اليَّ ويثق بـي ، ثـم أقبضُ عليه وأحظى به عند الخليفةِ كما حَظَي عبد اللهِ بنُ طاهرٍ.

فزجَرَه القاضي ابنُ أبي دؤادَ ، وقال له: أمُطَهرٌ أنتَ...؟

قال: لا .

قال: فما منعك من ذلك وبه يمامُ الإسلامِ...؟ والطُّـهورُ من النجاسةِ ...؟

فقال الأفشين: أو ليس في الأسلامِ استعمالُ التقيةِ...؟

قال: بلى .

قال: خفتُ أن أقطع ذلك العضوَ من جسدي فأموتَ .

فقال: أنتَ تطعنُ بالرمحِ وتضربُ بالسيفِ ، فلا يمنعُك ذلك أن يكونَ ذلك في الحربِ ، وتجزعُ من قطعِ قلفةٍ...؟

قال: تلك ضرورةٌ تصيبُني فأصبرُ عليها ، وهذا شـيئٌ أستجلبُهُ .

فقال القاضي ابن أبي دؤاد لبغا الكبير: عليك به فضروب بيده على منطقة فجذ بها ، وأخذ بمجامع ثيابه من صدره الى عنقه ، وقاده الى سجنه ، وقد تثبت إدانته ، وظهر كفره وتآمره على الإسلام وأهله ودولته.

موت الأفشين

بعد أن ثبتت إدانة الأفشين وسيق الى السجن وكل أمـره الى حمدون بن إسماعيل ، فجعل الأفشين يعتذر إليه ، ويستدر عطفه ، ويطلب منه أن يكون وسيطا بينه وبين أمير المؤمنين المعتصم ، فقال له: قل لأمير المؤمنين إنما مثلي ومثلك كرجل ربى عجلا حتى أسمنه ، وكبر ، وكان له أصحاب يشتهون أن يأكلوا من لحمه ، فعرضوا بذبحه ، فلم يجبهم ، فاتفقوا جميعا على أن يقولوا: لم تربي هذا الأسد ، فإنه إذا كبر رجع الى جنسه...!

فقال لهم: إنما هو عجل .

فقالوا: هذا أسد ، فسل من شئت .

وتقدموا الى جميع من يعرفونه ، وقالوا لهم: إن سألكم عن العجل فقولوا له: إنه أسد .

وكلما سأل إنسانا قال: هو سبع ، فأمر بالعجل فذبح .

ولكني أنا ذلك العجل كيف أقدر أن أكون أسدا...؟ الله... الله في أمري .

يقول سجانه حمدون: فتحت عنه ، وبين يديه طبق فيه فاكهة قد أرسله المعتصم مع ابنه الواثق ، وهو على حاله ، فلم ألبث إلا قليلا حتى قيل إنه يموت ، أو قد مات ،فحمل الى دار

إيتاخ فمات بها ، ثم أخرجوه وصلبوه على باب العامة ليراه الناس ، ثم ألقي وأحرق بالنار .

ويرى أنهم بحثوا في بيته بعد وفاته فرأوا تمثال إنسان من خشب عليه حلية كثيرة وجواهر ثمينة ، وفي أذنيه حجران مشتبكان عليهما ذهب ، فأخذوهما وهم يحسبونهما جوهرا وكان ذلك ليلا ، وفي الصباح نزعوا عنهما الذهب فإذا تحته جوهر ثمين جدا .

ووجدوا أصناما مختلفة ، وكتبا من كتب المجوس فجمعوها وأضرموا عليها النار فأتت على الجميع .

ويقول حمدون: وسألته هل هو مطهر[1]أم لا...؟ فقال: الى مثل هذا الموضع ، إنما قال لي هذا والناس مجتمعون ليفضحني إن قلت نعم ، قال لي تكشف والموت كان أحب الي من أن أتكشف بين يدي الناس ولكن إن شئت أنكشف بين يديك حتى تراني .

فقلت له: أنت صادق .

فلما بلغ المعتصم رسالته أمر بقطع الطعام والشراب عنه ، إلا القليل ، حتى مات .

---

(١)الطهر : الختان ، أي هل هو مختون... ؟

وقال أبو تمام بذم الأفشين :

ما كان لولا قبح غدره خيذر ليكون في الإسلام عام فجار[1]

مازال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطفى الزناد الواري[2]

وقال في موضع آخر من القصيدة في أبيات يحرض فيها أمير المؤمنين المعتصم على استئصال آل الأفشين:

يا قابضا يد آل كاس عادلا أتبع منهم بيسار[3]

ألحق جبينا داميا رملته بقفا وصدرا بصدار

---

(١) خيذر ، أو حيدر هو اسم الأفشين ، وعام الفجار: يقصد به حرب الفجار ، وإنما سميق الحرب بذلك ، لأن كنانة وقيس عيلان واستحلوا فيه الحارم بينهما وقد وقعت ورسول الله صلى الله وسلم ابن عشرين سنة.

(٢) والزناد الواري: يقصد به أن الأفشين أختار لنفسه أن تكون نهايته الإحراق بالنار .

(٣)آل كاوس: آل الأفشين ، لأن اسمه: خيذر ، أو حيدر بن كاوس .

التعريف بمازيّارَ

مازيّارُ: أصلُهُ فارسيٌ مجوسيٌ مازيّارُ بنُ قـــارنَ بـــنِ بندارَ ، دخل في الإسلام نفاقاً ومكراً ، وسَـــمّى محمـــداً وكـــان صاحبَ جبالِ طبرسانَ .

وكان واحداً من الذين اصطفاهُمّ المأمونُ بـــنُ الرشـــيد وقرَّبهم منه .

وفي سنةِ أربعِ وعشرين ومائتين ، وفي عهدِ المعتصـــمِ أعلن العصيانَ بطبرستانَ ودعا الى بيعتِهِ وخلعِ المعتصمِ ، كمـــا تقدم، فكتب المعتصمُ الى عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ بنِ الحسين يـــأمرُهُ بحربِهِ فسيَّر ابنُ طاهرٍ لحربِهِ عمَّهُ الحسنَ ابنَ الحسينِ، فكـــانت بينهما حروبٌ كثيرةُ انتهتْ بأسرِهِ وحملِهِ الى بغدادَ وقيـــل الـــى سامرا التي بناها المعتصمُ ، ثم أتخذها مقراً له .

فأقرَّ مازيّارُ على الأفشينِ أنه حرضه على الخروجِ والعصيانِ ، واعترف أنه والأفشينُ اجتمعا على مذهبٍ من مذاهبِ الثنويةِ[1] والمجوسِ .

---

(١) الثنويةُ : فرقةٌ من فرقِ الكفرِ والضلالِ تقولُ بتناســخِ الأرواحِ ، وذلك أن (ماني) الذي كان من أئمةِ الثنويةِ قال في بعضِ كتبـــه: إنَّ الأرواحَ التي تفارق الأجسامَ نوعان :

ـ أرواحُ الصّديقيــن ، وأرواحُ أهــلِ الضلالـــةِ فـــأرواحُ الصديقين إذا فارقَتْ أجسادها سَرَتْ في عمود الصبح الى النورِ الـذي فوقَ الفلكِ ، فبقيَتْ في ذلك العالمِ على السرورِ الدائمِ .

ـ وأرواحُ أهلِ الضلالـــــةِ إذا فـــارقَتِ الأجســـادَ وأرارادتِ اللحوقَ بالنورِ الأعلى رُدَّتْ منعكسة الى أسفلِ ، فتتناسخُ في أجســـامِ الحيواناتِ الى أن تصفوَ من شوائبِ الظلمةِ ، ثم تلحقُ بالنورِ العالي.

وماني هذا: هو ماني بنُ ماش ، تنسبُ إليه طائفةُ المانويةِ وإن كـــان في الأصل مجوسياً ثَنَوياً .

كان مانـي مجوسياُ ، فأحّدثَ ديناً ودعا إليه ، وزعم أنَّ صانعَ العـــالمِ اثنان أحدهما فاعلُ الخيرِ وهو نورٌ ، وثانيهما فاعلُ الشرِ وهو ظلمـةٌ ، وهما قديمان ، لم يزالا ، ولن يزالا ، وهما مختلفان فـــي النفسِ والصورةِ ، متضادّان في الفعلِ والتدبيرِ .

وقد ظهر ماني في أيامِ كسرى ، سابورَ بنِ أردشيرَ وتبعـــه خلقٌ عظيمٌ من المجوسِ ، وادّعوا له النبوةَ ، وما زالَ كذلك الـــى أن قُتِلَ في زمنِ كسرى سابورَ بنِ بهرام .

وقيل: إن قاتل مانـي ، هو بهرامُ بنُ هرمزَ بنِ سابورَ.

وقيل غيرُ ذلك والله أعلم .

انتهى من كتابِ (الفرق بين الفَرقِ) بتحقيق محمد محي الدين عبـــد الحميد ، رحمه الله تعالى .

فضرب المازيار بالسوط حتى مات بعد أن شهر وصلب إلى جانب بابك الخرمي .

وقد حاول المازيار أن يغري أمير المؤمنين المعتصم ويرغبه في أموال كثيرة يحملها إليه إن هو عفا عنه ومن عليه بالبقاء ، فأبى ذلك وتمثل قول أبي تمام حبيب بن أوس .

إن الأسود أسود الغيل همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وقد روى المسعودي في مروج الذهب : أن مازيار حين صلب الى جانب بابك الخرمي مالت خشبة بابك فتدانت أجسامها ، وقد كان صلب في ذلك الموضع ناطس[1] بطريق عمورية ، وقد انحنت نحوها خشبته ففي ذلك يقول أبو تمام حبيب بن أوس من كلمة له:

ولقد شفى الأحشاء من برحائها إذ صار بابك جار مازيار

ثانيه في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان إذ هما في الغار

فكأنما انحنيا لكليما يعلوا يا عن ناطس خبرا من الأخبار

هذا... وقد تقدم معنا خبر مازيار مفصلا ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ناطس ، ويروى مناطس ، وباطس ، وهو الذي قاده المعتصم أسيرا يوم وقعة عمورية .

خبر المبرقع

انتهت معركة عمورية ، وفتحها الله تعالى على عبـــاده المؤمنين فتحا مبينا ، ونصرهم فيها على عدوهم نصرا عزيـــزا وذل الكفر وأهله ، وأعاد للإسلام وجهه المشـــرق وللمســلمين عزتهم وكرامتهم ، لكن المعركة مــــع الطـــامعين والمســتغلين والمتآمرين ظلت قائمة ومشتعلة طيلة فــترة خلافتـــه ، ولبــث المعتصم صادرا شامخا يتصـــدى لـــرؤوس الفتــن وزعمائـــها ويضربُ عليهم بكل قوةٍ وحزمٍ ، ويطاردُهم من مكـــانٍ لآخـــر حتى استأصلهم عن آخرِهم وقضى عليهم وأخمد ثوراتِهِم وأطفأ نيرانَ فتنِهِم ، ولكنْ سنةَ اللهِ في خلقهِ أنْ يبقى الصراعُ قائماً بيـن الخيرِ والشرِ ، والق والباطلِ الى يومِ القيامةِ لايلبثُ الباطلَ بعــد ذلك أنْ يهزمَ ، ويخرَّ صريعاً مجندلاً تصديقاً لقولِ الحق تبـــارك وتعالى بل نقذفُ بالحقِ على الباطلِ فيدفعُهُ فإذا هو زاهـــقٌ)[١]

صدق الله العظيم .

وكذلك بقيَ المعتصمُ يقاومُ الشرَّ وأهلهُ حتى وفاتِهِ ، ففي سنةِ سبعٍ وعشرين ومائتين خرج عليه رجلٌ من المسلمين يقـالُ له أبو حربٍ المبرقعُ اليمانيُّ ، وكان سببُ ذلك أنَّ بعضَ الجنـــدِ أراد النزولَ في بيتهِ وهو غائبٌ ، فمنعَتْهُ زوجتُهُ

---

(١) الآية /١٨/ من سورة الأنبياء .

فضرب بها بسوط ، فأصاب ذراعها ، فأثَّرَ فيها رجع أبو حربٍ الى منزلِهِ شكَتْ إليه ما فعل بها الجنديُّ ، فأخذ سيفَهُ وقصد الجنديَّ فقتلَهُ وهرب ووضع على وجهِهِ برقعاً ولذ بالجبالِ فاعتصم بها فكان يظهرُ بالنهارِ مبرقعاً ، حتى عُرِفَ بين الناسِ بالمبرقعِ وجعلوا يقصدونه وينضمون إليه ، حتى بلغ عددُهم مائةَ ألفٍ معظمُهم من الفلاحين ، قيل كان في بعضِ جبالِ الأردن ، وكان يزعمُ لأتباعهِ أنه أمويٌّ فاعتقد أصحابُهُ أنه السفيانيُّ الذي أخبر عنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

هذا... وكان أمير المؤمنين المعتصمُ في مرضِ موتِهِ فبعث لقتالِهِ رجاءَ بنَ أيوبَ الحضاريَّ على رأسِ نحوِ من مائةِ ألفِ جندي .

فجعل ابنُ أيوبَ يستطلعُ أمرَهُ فرأى أتباعَهُ كثيرين جداً ، فكره قتالَهُ وعسكرَ قريباً ، حتى انشغل أتباعُهُ بالزراعةِ والعملِ في الحقولِ ، ولم يبقَ مع المبرقعِ سوى ألفٍ أو ألفين .

في هذه الظروفِ الحرجةِ تُوفيَ المعتصمُ ، ووليَ الواثقُ خلافةَ المسلمين ، وثارتِ الفتنةُ بدمشقَ ، فأمر الواثقُ رجاءَ بنَ أيوبَ بقتالِ مَنْ أراد الفتنةَ ، ثم يعودُ إلى المبرقعِ فينهيَ أمَرهُ ففعل ذلك وعاد إلى المبرقعِ فناجزَهُ فأسرهُ ، وأخذه الى (سُرَّ مَنْ رأى) وهي سامراء.

وهكذا بقيتِ الفتنُ قائمةً ، والثوراتُ مشتعلةً والمؤامراتُ والدسائسُ مستمرةً منذُ تولّي المعتصمِ الخلافةَ الـــى أنْ مـــاتَ ، وبموتِهِ طويَتْ صفحةٌ من الكفاحِ والنضالِ في ســـبيلِ تثبيـــتِ الخلافةِ العباسيةِ ، وتوطيدِ أركانِها ، وتوسيعِ رقعتِها ، والدفـــاعِ عنها لرفعِ رايةِ الإسلام ، وعزةِ وحدتهِ ، وترابطِ أبنائهِ .

خاتمة

في وفاة المعتصم

توفي المعتصم رحمه الله تعالى يوم الخميس الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين ، وعمره ثمان وأربعون سنة .

ولما حضرته الوفاة جعل يقول: (حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)[١] ، ثم قال: لو علمت أن عمري قصيرٌ ما فعلتُ .

وقال: ذهبَتِ الخيلُ فلا حيلة .

وروي أنه قال في مرضِ موتِهِ: اللهم إني أخافُكَ من قَبلي ولا أخافُكَ من قَبلِكَ ، وأرجوك من قَبلِكَ ولا أرجوكَ من قَبلي .

قال زنامُ الزامرُ: أفاق المعتصمُ في علِتِهِ التي مات فيها ، فركب في الزّلاّلِ في دجلةَ وأن معه ، فمرَّ بإزاءِ منازله فقال: يازنام أزمرلي

يامنزلاً لم تبلَ أطلالُهُ	حاشا لأطلالكَ أنْ تبلى
لم أبك أطلالك لكنني	بكيت عيشي فيك إذ ولي
والعيش أولى ما بكاه الفتى	لا بد للمخزون أن يسلى

قال: فمازالتُ أزمِرُ له هذا الصوتَ ، وأكّـــرِرُهُ ، وقــد تناول منديلاً بين يديه ، فمازال يبكي وينتحبْ حتى رجــع الـــى منزلِهِ .

وكانت خلافتُهُ ثمانيَ سنين وثمانيةَ أشهرٍ ويومين.

ولقد رثاهُ الشعراءُ والأدباءُ ، والمحبــون والأصدقــاء ، وقال وزيرُهُ محمدٌ ابنُ عبدِ الملكِ الزيات يرثيه:

قد قلتُ إذ غيبوكَ واصطفقَتْ　　　عليك أيدٍ بالتُرْبِ والطينِ

اذهب فنعمَ الحفيظُ كنت على الــ　　　دّنيا ونعم المعينُ للدينِ

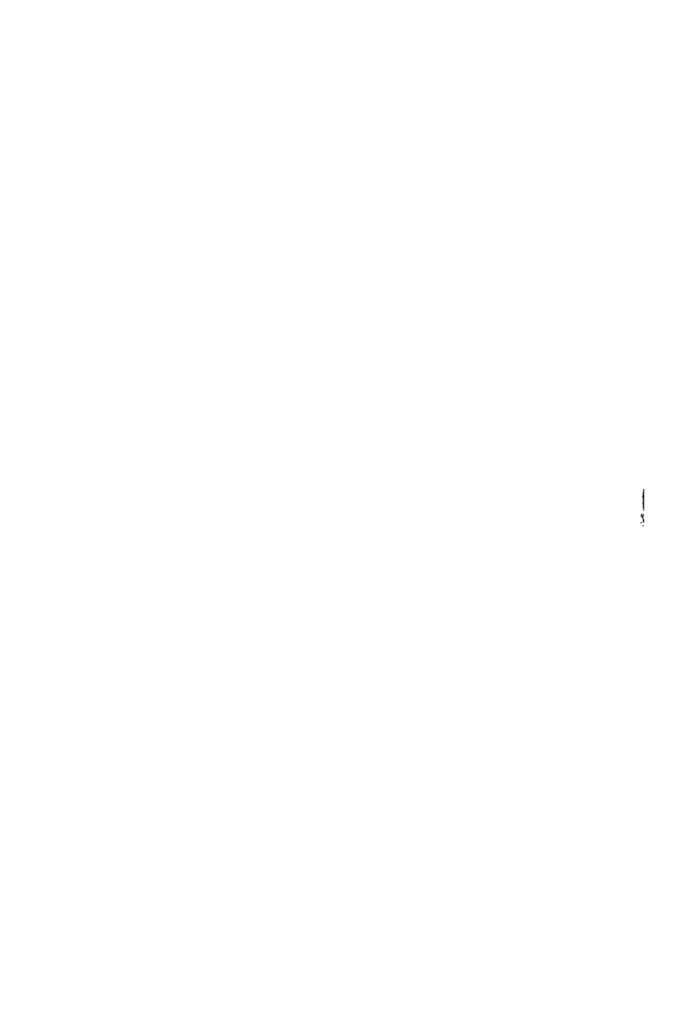
لايـــجبرُ اللهُ أمـــةً فـــقدَتْ　　　مثلكَ إلا بمثلِ هارونِ

وهذا آخرُ ما يسَّرَ اللهُ تعالى لإعدادِ هذه الرسالةِ المتواضعةِ وقـدِ اعتمدتُ في إعدادِها على عددِ من المراجعِ التاريخيةِ والتراثيـــةِ وهي البدايةُ والنهايةُ لابنِ كثير ، وتاريخِ الطبري ، والكامل في التاريخِ لابنِ الأثـــير ، مـــروج الذهـــب للمســـعودي ، الفـــرق للأسفرانيني شرح ديوان أبي تمام للتبريزي ، لسانِ العربِ لابــن منظورِ المصباح المنير ، معجم البلدان لياقوتَ الحموي.

تمت الرسالةُ والحمد للهِ ربِ العالمين

وإلى اللقاء مع معركةٍ إسلاميةٍ خالدةٍ

الفهرس



مَعارك عَربيّة خَالدة

١٦

معركة الزلاّقة

إعـــداد

عبدالقادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية ـ حلب ـ خلف الفندق السياحي

ص.ب : 78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabl@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

معركة الزلاّقة

التعريف بها

الزلاّقةُ : مكانٌ واسعٌ من الأرضِ ، يقعُ قريباً من بَطَلْيوسَ وبين الموضعين أربعةُ فراسخَ .

وبَطَلْيوس : مدينةٌ كبيرةٌ بالأندلسِ ، تقعُ على نهرِ (آنه) غربيَّ قرطبةَ .

وسُمّيَ المكانُ بالزّلاقةِ ، من قولِهم : مكانٌ زلْقٌ ، أي دَحْضٌ ، وزَلِقَتْ رجلُهُ تزْلَقُ زلقاً .

والزّلاّقةُ : الموضعُ الذي لا يمكنُ الثبوتُ عليه من شدةِ زَلَقِهِ ، والتشديدُ فيه للتكثيرِ .

وعلى أرضِ الزّلاقةِ ، اجتمعت جيوش المسلمين بقيادةِ السلطان يوسفَ بنِ تاشفين رحمه اللهُ تعالى ، وجيوشُ الفرنجةِ بقيادةِ الأذفونشِ ، أو ألفونسو ملكِ الإفرنجِ ، ودارَتْ بينهما معركةٌ قويةٌ وطاحنةٌ أسفَرَتْ عن هزيمةٍ منكرةٍ للفرنجةِ انتهت بموتِ ألفونسو جوعاً وعطشاً ، وقهراً وحسرةً لما أصابه وحلَّ بجيشِهِ من هربٍ ، وقتلٍ ، وتشريدٍ ، وضياعٍ في أرضِ اللهِ الواسعةِ ، وفوق أرضِ الزّلاقةِ انتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً في يومٍ عظيمٍ أغرَّ اجتمع فيه المسلمون تحت قيادةٍ واحدةٍ ، وقاتلوا من أجل قضيةٍ مشتركةٍ وعادلةٍ ، وصمدوا صموداً مشرفاً ، وثبتوا ثباتاً عظيماً ، فاستحقوا النصرَ والعونَ والتأييدَ من اللهِ تعالى .

وإننا إذ نذكرُ معركةَ الزّلاقةِ نذكر معركةً خالدةً من معارك تاريخنا المجيدِ ، ويوماً من أيامِ أمتنا الحرةِ الأبيةِ ، وصفحةً عظيمةً ومشرفةً من صفحاتِ مجدنا العريقِ الحافلِ بالنصرِ ، المشرقِ بالبطولاتِ الكثيرةِ والتضحياتِ الجسيمةِ ، والمواقفِ النبيلةِ ما يجعلُنا نذكرُها بكلِ فخرٍ واعتزازٍ ، ونرفعُ رؤوسنا بكلِ شموخٍ وإباءٍ ، ونقفُ إجلالاً واحتراماً لسلفِنا الصالحِ ،

وأجدادنا العظامِ الذين بنوا لنا هذا المجدَ المؤثـــل ، والتــاريخَ الحافلَ بالعزةِ والكرامةِ ، والشرفِ والتضحيةِ والإباءِ ، وضحّوا بأموالِهم ودمائِهم وأعصابِهِم وكلِّ ما يملكــون لرفــعِ رايــةِ الإسلامِ عاليةً خفاقةً ، ولنشرِها في مشرقِ الأرضِ ومغربِــها، فكانوا كما تحدَّث عنهمُ القرآنُ الكريمُ (خيرَ أمــةٍ أخرجَــتْ للناسِ) .

ظهورُ أمرِ بلاي

تقولُ المراجعُ التاريخيةُ ، كان أولَ من ألَّبَ النصارى مــن أهلِ أشتوريشَ من جلّيقيَّة [1] وجمعهم على قتــالِ المســلمينَ وإخراجِهِم من الأندلسِ رجلٌ يقالُ له : بلاي ، وكان بــلاي ابنَ أميرٍ من أمراءِ القوطِ يُسمّى برمودو ، وابنَ أخي لُذريــقَ ، وأنه اختلف مع عمِهِ لذريق فنفاه هذا عن طُلَيْطُلَةَ قبيل دخــولِ المسلمين جزيرةَ الأندلسِ ، فذهب إلى أشتوريشَ وجعل نفسَــهُ أميراً عليها .

[1] جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب .

وفي أيامِ الحرِ بن عبدِ الرحمن الثقفي هرب من قرطبةَ ، وذلك في السنةِ السادسةِ من فتحِها ، وهي سنةُ ثمانٍ وتسعين فلجأ إلى أربونةَ [1] من أرضِ الفرنجةِ ومعه ثلاثمائةِ رجلٍ من فلِّ النصارى ، فتبعَهُمُ المسلمون حتى لجأ هؤلاءِ إلى صخرةٍ في جبلٍ من جبالِ أربونةَ بجلّيقيَّةَ ، فلاذوا بها ، فحاصرهُمُ المسلمون ، وقاتلوهم حول تلك الصخرةِ فمات أكثرُهم جوعاً وعطشاً ، ولم يبقَ منهم سوى ثلاثين رجلاً وعشرِ نسوةٍ، وليس لهم طعامٌ إلا العسلُ يأخذونه من شقوقٍ بالصخرةِ فيقتاتون به ، ولم يزلْ أمرُهم كذلك حتى ملَّ منهمُ المسلمون ، واستصغروهم ، ولم يهتمّوا بشأنِهم ، وقالوا : ثلاثون علجاً [2] ما عسى أن يجيءَ منهم .. !! .. ؟؟

فتركوهم وانصرفوا عنهم ، فكان ذلك فرصةً لبلاي ورجالِهِ أن يتحركوا في ذلك الجبلِ ، ويتدربوا على فنِّ القتالِ استعداداً لشنِّ إغاراتِهم على المسلمين الذين انهمكوا في

---

[1] أربونة : بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس ، بينها وبين قرطبة ألف ميل .

[2] العلج : الرجل الضخم من كفار العجم ، وبعض العرب يطلق العلج على الكافر مطلقاً . والجمع : علوج وأعلاج .

اللذائذِ، وانغمسوا في الشهواتِ ، واتّخذوا لأنفسِهم القصـــورَ والقينات ، وأحيطوا بالجواري والراقصاتِ . وعكفـــوا علـــى أسبابِ اللهوِ والعبث والمغنياتِ ، وركنوا إلى متاعِ الدنيـــا ، ونسُوا الآخرةَ و لم يعملوا لها ، فأذاقَـــهُمُ اللهُ لباسَ الجـــوعِ والخوفِ بما كانوا يصنَعون .

هذا ... وفي الوقتِ الذي كان المسلمون مشـــغولين في قصورِهِم وجواريهِم عاكفين على لهوِهِم وعبثِهِم ، كان بـلاي وأصحابُهُ الثلاثون ماضين في التدريبِ والاستعدادِ للانقضـاضِ على المسلمين بشتّى أنواعِ الأسلحةِ والقتالِ حتى اكتسبوا قـوةً في أبدانِهِم ، وإرادةً في نفوسِهِم ، وأصبحوا فرســـاناً أشـدّاءَ يُحسَبُ لهم ألفُ حسابٍ .

لقد استغلوا إقامتَهم في الجبل ، فعاشوا معه ، وتأثروا بـه ، واكتسبوا منه قوةً وصلابةً في أبدانهم ، وشدةً وبـلاءً وإرادةً في نفوسِهِم، وازدادوا كثرةً وعدةً في صفوفهم .

وفي سنةِ ١٣٠ من الهجرةِ بدأ بلاي ينفّذُ ما خطّط له منـذ سنين، فهجم بجنودِهِ الأشدّاء على ثغورِ المسلمين في الأندلسِ ،

فأخذ المدنَ والثغورَ ، وعاث في الأرضِ الفسادَ ، ومضى ينشرُ فيها الشرَّ والبلاءَ والدمارَ ، فهدَمَ الحصونَ ، واحتلَّ البلادَ ، وقتلَ الأطفالَ والنساءَ ، وأحرق المزارعَ والبيوتَ ، واستباحَ الحرماتِ ، وأهلكَ الحرْثَ والنسلَ ، وفعل ما فعل دون رحمةٍ أو شفقةٍ أو إنسانيةٍ ، واستطاع أن يستوليَ على ما كان بأيدي المسلمين من ثغورِ الأندلسِ مما يلي بلادَ الفرنجةِ .

استلامُ الفونسو بعد بلاي وولدِهِ

وفي السنة الثالثةِ والثلاثين بعد المئةِ من الهجرةِ هلك بلاي المذكورُ فَخَلَفَهُ ابنُهُ فافيلا الذي أقام في قومِهِ سنتْينِ بعد موت أبيه ، ثم مات بعده الفونسو بن بيدرو ، وهو ألفونسو الأولُ جدُّ بني الفونسو الذين استخلصوا الأندلسَ من المسلمين مدينةً... مدينةً .

وكان ألفونسو المذكورُ قد تزوّج ابنةَ بلاي ، أرمَنيَنْدا ، لذلك قام بالأمرِ بين قومه بعد موتِ فافيلا بنِ بلاي .

فكان ألفونسو هذا يغيرُ على البلادِ بكلِ شراسةٍ ووحشية، فيهدمُ المنازلَ والبيوتَ على أهلِها ، ويحتلُّ المدنَ والحصونَ ، ويخلِّفُ وراءَه الذعرَ والخوفَ والدمارَ ، بعد أن كان الناسُ في أمنٍ من العيشِ، ودَعَةٍ ورَغَدٍ واستقرارٍ ، وصدق اللهُ العظيمُ إذ يقولُ في كتابِهِ العزيزِ :

(وضرب اللهُ مثلاً قريةً كانَتْ آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُـــها رَغَداً من كلِ مكانٍ فكفَرتْ بأنعُمِ الله فأذاقَها اللهُ لباسَ الجـوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون) [1](ذلك بما قدَّمَتْ أيديكُم وأنَّ اللهَ ليس بظلامٍ للعبيدِ)[2].

ولستُ أدري فقد أكونُ مغالياً حين يقـــودُني الخيـــالُ في النظرِ والتأملِ في كتابِ الله تعالى ، ومن خلالِ التدبرِ في سورةِ سبأ وهي تقصُّ علينا قصةَ أهل سبأٍ وبطرِهم بالنعمةِ وزوالِـــها عنهم ، وتفرقِهم بعد ذلك ، وتمزُّقِهم كلَّ مُمَزَّقٍ .

---

(١) الآية ١١٢ من سورة النحل .

(٢) الآية ٥١ من سورة الأنفال .

إنَّ التماثلَ بين قصةِ أهل سبأٍ ، وبـين قصصِ ملوك الأندلسِ متقاربٌ جداً في العظةِ والعبرةِ ، ومختلفٌ في التصرفِ والسلوك ، ومتباعدٌ في العقيدةِ والإيمانِ .

إنَّ أهلَ سبأٍ كانوا قوماً كافرين ، بينما كانَ أهلُ الأندلس قوماً مؤمنين ، والجميعُ كانوا في رزقٍ ونعيمٍ ، ورَغَدٍ وخيرٍ عميمٍ ، فكانوا في أرضٍ مخصبةٍ ما تزالُ منها بقيةٌ إلى اليومِ ، وقدِ ارتقَوا في سُلّم الحضارةِ والمدنيةِ ، حتى تحكّموا في مياهِ الأمطارِ الغزيرةِ تأتيهم من كلِ جهةٍ ، وتنزلُ عليهم من الجبالِ فاستغلوها أحسنَ استغلالٍ بإقامةِ خزاناتٍ ضخمةٍ تصرّفوا فيها وجرُّوها إلى القصورِ والمزارعِ والبركِ وتحكّموا فيها وفقَ حاجاتِهم ، وكلا الفريقين بطر النعمةَ ، وانساق وراء الشهوةِ ، واستسلم للشيطانِ .

أما أهلُ سبأٍ فقد فعلوا ذلك كفراً وطغياناً ، وملوكُ الأندلسِ فعلوا ذلك فسوقاً وجهلاً ، وكلا الفريقين زيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فصَدهُّم عنِ السبيلِ ، فكانتِ النتيجةُ متساويةً تقريباً ، فالجميعُ بَطِروا النعمةَ ، ولم يصبروا على

المِحَنِ ، و لم يشكروا على المِنَح ، ففعل اللهُ تعالى بهم ما فعل ، لقد مَزَّقَ أهل سبأ كلَّ مُمَزَّقٍ ، وجعلهم أثــراً بعــدَ عــينٍ ، وحديثاً يروى ، وقصةً تحكى ، تدعـــو إلى العظــةِ والعــبرةِ والتأملِ...!!

وسلَّطَ على أهلِ الأندلسِ قلةً قليلــةً فجاســوا خــلالَ الديارِ، وأخذوا منهمُ البلادَ ، وعاثوا فيها الفســادَ وأهلكــوا الحرثَ والنسلَ ، وشَرَّدوهم في أرضِ اللهِ الواسعةِ ، (ذلك بــأنَّ اللهَ لم يكُ مغيراً نعمةً أنعَمَها على قومٍ حتى يغيّروا ما بأنفســهِم وأنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ) (١).

(لقد كان لسبأٍ في مسكنهم آيةٌ جنتان عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا مِنْ رزقِ ربكم واشكُروا له بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفــورٌ . فــأعرضُوا فأرسلْنا عليهم سَيلَ العَرِمِ وبَدَّلناهم بجنتهِم جنّتين ذواتَي أُكُــلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليلٍ . ذلك جزيناهم بما كفــروا وهل نُجازي إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القــرى الــتي باركْنا فيها قرىً ظاهرةً وقدَّرنا فيها السيرَ سيروا فيــها ليــاليَ

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الأنفال .

وأياماً آمنين . فقالوا رَبنا باعِدْ بين أسفارِنا وظلموا أنفسَهُم فجعلناهم أحاديثَ ومَزَّقناهم كلَّ مُمَزَّقٍ إنَّ في ذلك لآياتٍ لكل صبارٍ شكورٍ . ولقد صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظنَّهُ فاتَّبعوهُ إلا فريقاً من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطانٍ إلا لنعلمَ مَنْ يؤمنُ بالآخرةِ مِمَّنْ هو منها في شكٍّ وربُك على كلِ شيءٍ حفيظ) [1]صدق الله العظيم .

سقوط طُليطلة [2]

وظلَّتِ الأحداثُ مستمرةً ، والحروبُ مشتعلةً ، والاضطراباتُ قائمةً بعد ألفونسو إلى سنةِ أربعمئةٍ وخمس وسبعين ٤٧٥ من الهجرةِ ، وفي زمنِ القادرِ باللهِ ابن المأمونِ يحيى بنِ ذي النون ، حيث هاجم الأذفونش[3] مدينة طُلَيْطِلَةَ ، فاستطاعوا أن يدخلوها ، ويستولوا عليها، ويطردوا مَنْ فيها من المسلمين بعد

---

[1] الآيات ١٥ ــ ٢١ من سورة سبأ .

[2] طليطلة : مدينة كبيرة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة ، وكانت قاعدة ملوك القوطيين وموضع قرارهم وتقع على شاطئ نهر تاجة .

[3] الأدفونش : هم من أبناء ألفونسو المتقدم ذكره .

حصـــار دام ســبعَ سنين ، الأمرُ الذي جعلَ الملوكَ والأمراءَ يصـــحون مـــن غفلتِهِم ، ويستيقظون من نومِهِم ، ويعترفون بتقصيرِهم وتفريطِهم بحِق البلادِ .

وعلى سقوطِ طُلَيْطِلَةَ ذُرِفَتْ الدموعُ ، وحزِنَت النفوسُ، وتألَّمَـــت القلوبُ ، وبكى عليها الناسُ دمعاً مدراراً ، وصاغ فيها الشعراءُ أجملَ القوافي وأعذبَ الكلماتِ وأحزنَها ، ذَرَفَتْ لها العيونُ دمعاً شجياً وخَلَّفَتْ في القلوبِ حزناً عميقاً ، منها قولُ عبدِ اللهِ بنِ فرجٍ اليحصُبِيِّ المشهورِ بابن العسّالِ :

يـــا أهـــلَ أندلسٍ حُثّوا مطيَّكُمُ	فمـــا المُقـــامُ بهـــا إلا من الغلطِ
الـــثوبُ يُغْسَلُ من أطرافِهِ وأرى	ثوبَ الجزيرةِ مغسولاً من الوسطِ
ونحـــنُ بـــين عـــدوٍّ لا يفارقُنا	كـــيف الحياة مع الحيات في سفط

ويروى صدر البيت الثالث هكذا :

من جاور الشر لا يأمنْ بوائقَه	كيف الحياةُ مع الحيّاتِ في سَفَطِ

وتروى الأبياتُ هكذا :

حُثّوا رواحلَكُم يا أهــلَ أندلــس	فما المُقــامُ بهــا إلا مــن الغلــطِ
السلكُ يُنثَرُ مــن أطرافِــهِ وأرى	سلكَ الجزيرة منثوراً من الوسَــطِ
مَنْ جاوَر الشرَّ لا يــأمنْ بوائقَــه	كيف الحياةُ مع الحيّات في ســفطِ

وقيل غير ذلك كثيرٌ .

وقد رويَ أنَّ المأمونَ يحيى بنَ ذي النونِ صاحبَ طُلَيْطِلَــةَ بنى بها قصراً شامخاً تأنَّقَ في بنائِهِ ، وأنفق في سبيلِ ذلك أمــوالاً كثيرةً ، وصَنَعَ فيه بحيرَةً ، وبنى في وسطِها قبةً ، وسيقَ الماءُ إلى رأسِ القبةِ على تدبيرٍ أحكمَهُ المهندسون ، فكان الماءُ ينســابُ من أعلى القبةِ محيطاً بها ، متصلاً بعضُهُ ببعضٍ ، فكانتِ القبــةُ في غِلالةٍ من ماء سكبٍ لا يفتُرُ ، فكان المأمونُ بنُ ذي النــونِ يجلسُ فيها لا يمسُّهُ من الماءِ شيءٌ ، ولو شاء أن يوقِــدَ فيــها الشمعَ لفعلَ .

فبينما هو جالسٌ فيها ذات يومٍ إذ سمع منشداً يقولُ :

أتبــني بنــاءَ الخــالدين وإنّمــا	بقاؤكَ فيها لو علمــتَ قليــلُ
لقد كان في ظــلِّ الأراك كفايــةٌ	لِمَنْ كلَّ يــومٍ يعتريــه رحيــلُ

قيل : فلم يلبَثْ بعد ذلك إلا يسيراً حتى قضى نحبَهُ .

فسبحان مَنْ له الدوامُ ...!! وسبحان الحي الباقي بعد فناءِ خلقِهِ...!! وسبحانَ القائلِ : (كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ لـه الحكمُ وإليه تُرجَعون) [1] صدق الله العظيم .

أسبابُ معركةِ الزّلاقةِ

لمعركةِ الزلاّقةِ عدةُ أسبابٍ :

أولُها :

شعرت الفرنجةُ بضعفِ ملوكِ الطوائفِ ، وتفرقِ كلمتِهِم ، وتعدُّدِ إماراهم ، واستعانةِ بعضِهِم على بعضٍ بالأعداءِ ، وربما تآمَرَ بعضُهم على أخيه ، أو على عمِهِ أو ابنِ عمِهِ ، أو اعتدى عليه وقاتَلَهُ ، فازدادَتْ أطماعُهم بالتوسعِ في أرضِ الأندلسِ ، خاصةً بعد سقوطِ طُلَيْطِلَةَ ، وعجزِ أمرائِها عنِ الدفاعِ عنها ، وعدمِ قدرتِهِم على ردِّ عدوانِ الأذفونشِ ، ومقاومة أخطارِهِم، الأمرُ الذي جعل الفرنجةَ تشتدُّ وطأتُهم على المسلمين ، فأخذوا

---

[1] الآية ٨٨ من سورة القصص .

يغيرون على بلادِهم ، فيقتلون ويحرقون ، ويخربون وينــهبون ، وينشرون بين أهلِها الخوفَ والذعرَ ، والقلقَ والاضطرابَ دون أي يلقَوا مقاومةً تردعُهم وتردُّهم على أعقابِهم ، لدرجةِ أنهـــم عقدوا مع الأذفونشِ صُلْحاً يؤدون لهم بموجبِهِ قَدْراً معلوماً كلَّ سنة ، يؤدونه على ضعفٍ منهم وقهرٍ . فطمع فيهمُ الأذفونشُ، وأخذوا كثيراً من ثغورِهم ، وقوي بسببِ ذلـــك شـــأنُهم ، وعظُمَ سلطانُهم ، وازدادوا تعنتاً وكبراً وتغطرُساً ، ومضَـــوا يجوسون خلالَ الديارِ ، ويفتحون البلادَ والثغورَ ، والمعــــاقلَ والحصونَ .

قال ابن الأثيرِ : وكان المعتمدُ بنُ عبـــادٍ أعظـــمَ ملـــوكِ الأندلسِ ، وكان يملكُ أكثرَ البلادِ ، مثل قرطبـــةَ وإشـــبيليةَ ، وكان مع ذلك يؤدي الضريبة إلى الأذفونش كلَّ سنةٍ .

فلمّا تملَّكَ الأذفونشُ طُلَيْطِلَةَ أرسل إليه المعتمدُ الضريبــــةَ على عادتِهِ فلم يقبلْها منه ، وأرسل إليه يهدِّدُهُ ويتوعَّدُهُ بالمسيرِ إلى قرطبةَ ليفتَحَها ، إلا أن يسلمَ إليه جميعَ الحصونِ المنيعةِ [1] ،

---

(1) وكانت تلك الحصون بالجبال .

ويبقى السهلُ للمسلمين ، وكان الرسولُ [1] في جمعٍ كثيرٍ نحو خمسمئةِ فارسٍ ، فأنزلَهُ المعتمد ، وفرَّقَ أصحابَهُ على قوادٍ عسكرِه ، ثم أَمَرَ قوادَهُ أن يقتلَ كلٌّ منهم مَن عنده من الكفرةِ، وأحضَرَ الرسولَ وصَفَعَهُ حتى خرجَتْ عيناه ، وسَلِم من الجماعةِ ثلاثةُ نفرٍ ، فعادوا إلى الأذفونشِ وأخبروه الخبرَ ، وكان متوجهاً إلى قرطبةَ ليحاصرَها ، فرجع إلى طُلَيْطِلَةَ ليجمعَ آلاتِ الحصارِ ، ويكثرَ العددَ والعُدَّةَ [2] .

ثانيها :

تأخرُ المعتمدِ بنِ عبادٍ بدفعِ الضريبةِ المترتبةِ عليهِ للأذفونشِ بسببِ اشتغالِهِ بقتالِ ابنِ صمادحٍ صاحبِ المريّةِ ، الأمرُ الذي جعلَ الأذفونشَ ، أو ألفونسو يستشيطُ غضباً ، ويمتلئُ حقداً ، ويزدادُ غطرسةً واستهتاراً بالمعتمدِ بنِ عبادٍ وجميعِ ملوكِ الطوائفِ ، فطلبَ بعضَ الحصونِ زيادةً على الضريبةِ

---

[1] أي رسول الأذفونش إلى المعتمد .

[2] الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ١٤٢ طبعة دار صادر .

ثالثُها :

إمعانُ الأذفونشِ في غيهِ ، وتماديه في طغيانــــهِ وجبروتِــهِ واستهتارِهِ بالمسلمين ومقدساتِهم ، حاول أن يُدْخِلَ امرأتَـهُ إلى جامعِ قرطبةَ لتَلِدَ فيه امتهاناً بالمسلمين ، واستهتاراً بمقدســاتِهم بإشارةٍ من قساوستِهِ ورهبانِهِ لمكانةِ كنيسةٍ كانت في الجــانبِ الغربي من جامعِ قرطبةَ متعللين بطيبِ نسيم ذلـــك الموقــع ، وفضيلةِ موضعِ الكنسيةِ عندهم .

وكان السفيرُ في ذلك بين الأذفونشِ والمعتمدِ بــنِ عبــادٍ رجلاً يهودياً كان وزيراً للأذفونشِ ، فامتنع ابنُ عبادٍ من ذلــك امتناعاً شديداً ، ورفضَهُ رفضاً قاطعاً ، ووقف منـــه موقــفَ المدافعِ الغيورِ ذي النجدةِ والشهامةِ والمروءةِ الذي يدافعُ عــن شرفِهِ وحرماتِهِ ومقدساتِ دينِهِ .

فراجعه الوزيرُ اليهوديُّ في ذلك ، فأبى عليـــه المعتمــدُ ، وأيأسَهُ من ذلك فراجعه اليهوديُّ ، وأغلظ لـــه في القــولِ ، وواجهَهُ بكلِّ صفاقةٍ وسوءِ خُلُقٍ ، وخاطَبَهُ بما لم يحتملْهُ ابــنُ

عبادٍ الذي ردَّ على اليهوديّ ردّاً صارماً جعله يشعرُ باليأسِ والقنوطِ ، وفشلِ المهمةِ التي جاء من أجلها .

فما كان من ابنِ عبادٍ إلا أن تناول محبرةً كانت بين يديه فضرب بها رأسَ اليهودي ، فشقَّهُ وسال منه دماغُهُ ، ثم أمر به فصُلِبَ منكوساً على رأسِهِ ، وبقي كذلك حتى مات .

فلما بلغ الأذفونشَ ما صَنَعَهُ ابنُ عبادٍ ثار ثائرُهُ ، وطار طائرُهُ ، وأقسم بآلهتِهِ ليغزوَنَّهُ ببلادِهِ ، ويحاصرنَّهُ في قصرِهِ ، ويزيلَنَّ ملكَهُ .

فجرَّدَ جيشين كبيرين جعل على أحدِهِما كلباً مسعوراً من مساعيرِ كلابِهِ ، وأمر الجيشَ أن يتوجَّهَ إلى إشبيليةَ ماراً على كورةِ باجةَ من غربِ الأندلسِ ، مغيراً على الثغورِ والتخومِ ، زارعاً الخوفَ والفزعَ في تلك الجهاتِ .

أما الجيشُ الآخرُ فقد تولّى الأذفونشُ قيادتَهُ بنفسِهِ ، وكان جيشاً كبيراً عرمرماً فسلك به طريقاً غيرَ الطريقِ التي سلكها الجيشُ الآخرُ ، وكلاهما عاث في الأرضِ الفسادَ ، وأهلك

الحرثَ والنسلَ ، وخرَّبَ ودمَّرَ ، وقَتَلَ ونهب ، حتى اجتمعــا لموعِدِهما عند ضفةِ النهرِ الأعظمِ قُبالةَ قصرِ ابنِ عبادٍ .

كتابُ الأذفونشِ إلي ابنِ عبادٍ

وقُبالةَ قصرِ ابنِ عبادٍ ترجَّلَ فرسانُ الأذفونشِ عن جيادِهِم، ونصبوا خيامَــهم ، وبثــوا في الأرضِ جيوشَــهم ، وجعــل الأذفونشُ يرسلُ جنودَهُ ليغيروا هناك ، ويقتلوا وينهبوا .

وفي فترةِ إقامتهِ هناك كتب إلى ابنِ عبادٍ يهدِّدُه ويتوعَّـدُهُ ، ويقولُ له مستصغراً وزارياً : كَثُرَ بطولِ مُقَــامي في مجلســي الذبابُ ، واشتدَّ عليَّ الحرُّ ، فأتحفني من قصرِكَ بمروحــةٍ أروّحُ بها على نفسي ، وأطردُ بها الذبابَ عن وجهي .

فلما تلقّى ابن عباد كتاب الأذفونشِ ، وقرأَهُ وعرف ما فيه من صفاقةٍ وغطرسةٍ ، وسوءِ خُلُقٍ ، وقلــةِ أدبٍ ، ردَّ عليــه قائلاً: قد قرأتُ كتابَكَ ، وفهمتُ خيـــلاءَك وإعجــابَكَ ،

وسأنظرُ لك في مراوحَ من الجلودِ اللمطيّةِ تروّحُ منكَ لا تروّحُ عليكَ إنْ شاء اللهُ تعالى . ثم وقّعَ له بخطِ يدِهِ في ظهرِ كتابِهِ .

فلمّا وصل الكتابُ إلى الأذفونشِ ، وقُرِئَ عليه ، وفهم ما فيه ، أطرقَ في الأرضِ إطراقَ مَنْ لم يخطرْ له ذلك ببالٍ ، ولم يتوقّعْ هذا الجواب ممن يؤدّي له الضريبةَ كلَّ سنةٍ ، وأنه تمرَّدَ عليه ، وتحرَّرَ من خوفِهِ منه وتحدّاه ، فأدرك الأذفونشُ أن أمراً غيرَ عادي قد حَدَثَ عند ابنِ عبادٍ ، وأنه سوف يلقى منه ما لم يتوقّعْهُ ، أو يحسبَ حسابَهُ ، فصحا من طيشِهِ ، وجعل يعيدُ حساباتِهِ ، وينظرُ في عاقبةِ أمرِهِ فأدرك أنه قد تَسرَّعَ ، وقادَهُ تهورُهُ وغرورُهُ إلى حتفِهِ ، وفقدان كرامتِهِ ، وزجَّ بنفسِهِ وجيشِهِ إلى الهاويةِ . وتورّط في حرب غير متكافئةٍ وهو لا يدري ماذا يخبئُ له القدرُ ، وماذا يعدُّ له المعتمدُ بنُ عبادٍ . وصدق اللهُ العظيمُ إذ يقولُ : (ولا يحيقُ المكرُ السيِّيءُ إلا بأهلِهِ) [1].

---

[1] الآية ٤٣ من سورة فاطر .

استنجادُ ملوكِ الطوائفِ بيوسفَ بن تاشفين

كان لا بُدَّ لملوكِ الطوائفِ أن يجتمعوا ويتشاوروا بشأن أمرِ الأذفونش وكتابِهِ المتضمّنِ تهديدات ساخرةً ، وأطماعاً ظاهرةً ، ولهجةً مستهجنةً ساخرةً ، للوقوفِ في وجهِهِ ، والتصدي لجيشِهِ الزاحفِ إلى إشبيليةَ ، والمرابطِ حول قصرِ المعتمِدِ بنِ عبادٍ لاحتلالِهِ والقضاءِ على الحكمِ الإسلامي فيه ، ومن ثُمَّ طردُ المسلمين مِنَ الأندلسِ كلِها .

وكان يوسفُ بنُ تاشفين قد لمع نجمُهُ ، واشتُهِرَ أمرُهُ ، وقويَ سلطانُهُ في المغربِ ، وبنى مدينتي مراكشِ وتلمسانَ الجديدةِ ، وقهرَ البربرَ ، وأزال ملكَهم ، وخضعوا لأمرِهِ مع شدتِهِم وقوةِ شكيمتهم .

وكانت الفرنجةُ تخشاهُ ، وترهبُ أمرَهُ ، وتتحاشى الاصطدامَ معه ، إذ كان له اسمٌ كبيرٌ ، وصيتٌ عظيمٌ ، لنفاذِ أمرِهِ ، وسرعةِ تملكِهِ بلادَ المغربِ ، وانتقالِ الأمرِ إليه بسرعةٍ مذهلةٍ ، وسهولةٍ فائقةٍ . مع ما ظهر لأبطالِ الملثمين ، ومشايخِ

صنهاجةَ [1] في المعاركِ من بطولاتٍ خارقةٍ ، وشجاعةٍ نادرةٍ ، وضرباتٍ السيوفِ التي تقدُّ الفرسانَ ، والطعناتِ التي تنظـــمُ الكُلى .

قال المغربي : فكان له بسببِ ذلك ناموسٌ ورعبٌ في قلـــوبِ المنتدَبين لقتالِهِ .

وكان ملوكُ الأندلس يفيئون إلى ظِلِهِ ، ويحذرونه خوفـــاً على مُلكِهِم ، مهما عَبَرَ إليهم وعاينَ بلادهم فلما رأوا مـــا دلَّهم على عبورِهِ إليهم وعلموا ذلك راسَلَ بعضُـــهم بعضـــاً يستنجدون آراءهم في أمرِهِ ، وكان مفزعُـــهم في ذلـــك إلى المعتمدِ بنِ عبادٍ ، لأنه أشجعُ القومِ ، وأكبرُهم مملكةً ، فوقـــعَ اتفاقُهم على مكاتبتِهِ لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعـــراضَ عنهم ، وأنهم تحت طاعتِهِ .

فكتب عنهم كاتبٌ من أهلِ الأندلسِ كتاباً ، وهو :

أمّا بعدُ ، فإنك إنْ أعرضتَ عنا نُسبتَ إلى كـــرمٍ ، ولم تُنسبْ إلى عجزٍ ، وإن أجبْنا داعيَكَ نُســـبنا إلى عقـــلٍ ، ولم

---

[1] صنهاجة : بلدة مشهورة في المغرب .

نُنسبْ إلى وهنٍ ، وقدِ اخترنا لأنفسنا أجملَ نسبتَينا ، فـاخْتَر لنفسكَ أكرمَ نسبتيكَ ، فإنك بالمحلِّ الذي لا يجبُ أن تُسبقَ فيه إلى مكْرُمَةٍ ، وإنّ في استبقائِكَ ذوي البيوتِ ما شئتَ من دوامٍ لأمرِكَ وثبوت ، والسلامُ [1].

ثم بعثوا الكتابَ مع وفدٍ رسميٍّ يحملُ التحفَ والهدايا تعبيراً عن تقديرِهم واحترامِهم لهذا القائدِ العظيمِ وتقرباً منه لينالوا عونَهُ ومساعدتَهُ أمام العدوِّ المشترك .

وكان يوسفُ بن تاشفين ذكيّاً ألمعيّاً ذا قلبٍ كبيرٍ ، وعقلٍ راجحٍ ، فلما وصله الكتابُ قال له كاتبُهُ : أيّها الملكُ ، هذا الكتابُ من ملوكِ الأندلسِ يعظّمونك فيه ، ويعرّفونك أنهم أهلُ دعوتِكَ ، وتحتَ طاعتِكَ ، ويلتمسون منك أن لا تجعلَهم في منزلةِ الأعادي ، فإنهم مسلمون وذوو بيوتاتٍ ، فلا تغيّرْ بهم وكفى بهم مَنْ وراءَهم من الأعداءِ الكفارِ ، وبلدُهم ضيّق لا يحتمل العساكرَ ، فأعرِضْ عنهم إعراضَكَ عَمَّنْ أطاعَكَ من أهلِ المغربِ .

---

[1] نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

فقال يوسفُ بنُ تاشفين لكاتبهِ : فما ترى أنْتَ ... ؟

فقال : أيّهُا الملكُ ، اعلمْ أنَّ تاجَ الملكِ وبهجتَهُ وشاهدَهُ الذي لا يُرَدُّ بابهُ خليقٌ بما حصل في يدِهِ من الملكِ أن يعفوَ إذا استُعفيَ ، وأن يهبَ إذا استُوهِبَ ، وكلما وَهَبَ جزيلاً كان أعظَمَ لقدْرِهِ ، فإذا عَظُمَ قدرُهُ تأصَّلَ ملكُهُ ، وإذا تأصَّلَ ملكُهُ تشرَّفَ الناسُ بطاعتِهِ ، وإذا كانت طاعتُهُ شرفاً جاءه الناسُ ولم يتجشَّمِ المشقةَ إليهم ، وكان وارثَ الملكِ من غيرِ إهلاكٍ لآخرتِهِ ، واعلمْ أنّ بعضَ الملوكِ الأكابرِ والحكماءِ البصراءِ بطريقِ تحصيل الملكِ قال : مَنْ جادَ ساد ، ومَنْ سادَ قادَ ، ومَنْ قاد مَلَكَ البلادَ .

كتابُ يوسفَ بنِ تاشفينَ إلي ملوكِ الطّوائفِ

فلما ألقى الكاتبُ هذا الكلامَ إلى يوسفَ بنِ تاشفينَ بلُغتِهِ، فهِمَهُ وعلمَ أنهّ صحيحٌ ، فقال للكاتبِ : أجبِ القومَ ، واكتبْ بما يجبُ في ذلك ، واقرأْ عليَّ كتابَكَ .

فكتب الكاتبُ : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسفَ بنِ تاشفين ، سلامٌ عليكم ورحمة اللهِ وبركاتُهُ

تحيّةَ مَنْ سالمكم ، وسلَّمَ عليكم ، وحكَّمَهُ التأييدُ والنصرُ فيما حكَمَ عليكم ، وإنكم ممّا بأيديكم من الملكِ في أوسعِ إباحةٍ ، مخصوصُون منّا بأكرمِ إيثارٍ وسماحةٍ ، فاستديموا وفاءَنا بوفائِكم ، واستصلحوا إخاءَنا بإصلاح إخائِكم ، واللهُ وليُّ التوفيقِ لنا ولكم ، والسلامُ .

فلما فرغَ من كتابهِ قرأَهُ على يوسفَ بنِ تاشفين بلسانهِ ، فاستحسنَهُ وأمر بإرسالهِ إلى ملوكِ الطوائفِ مع تُحفٍ وهدايا أجملَ وأعظمَ منْ تحفِهم وهداياهم ، ومن بينها دَرَقٌ لمطيةٌ ، وهي لا توجدُ إلا في بلادهِ ، والدَّرَقُ اللمطيَّةُ ، معدِنٌ منسوبٌ إلى لمطةَ ، وهي بُلَيدةٌ عند السُّوسِ الأقْصى ، بينها وبين سجلماسةَ عشرون يوماً .

فلما وصلَ كتابُ ابنِ تاشفينَ إلى ملوكِ الطّوائفِ أحبُّوه وعظَّموه ، وفرحُوا بولايتِهِ ، وتقوَّتْ نفوسُهم به على مقاومةِ

الفرنجِ ، وأزمعوا إن رأَوْا من الأذفونشِ ما يَرِيبُهم أن يجُيزوا إليه يوسفَ بنَ تاشفينَ ، ويكونُوا مِنْ أعوانهِ عليه [1] .

وفشا في الأندلسِ توقيعُ ابنِ عبادٍ ، وردُّه الصريحُ والشجاعُ على الأذفونشِ وما أظهر من العزيمةِ على الاستنجادِ بيوسفَ بنِ تاشفين، والتعاونِ معاً على لقاءِ العدوِّ ، فاستبشرَ الناسُ خيراً ، وفرحوا فرحاً شديداً ، وفُتِحَتْ لهم أبوابُ الخيرِ والأملِ .

مراجعةُ بعضِ ملوكِ الطوائفِ المعتمدَ بنَ عبادٍ

أما بعضُ ملوكِ الطوائفِ فقد كان لهم رأيٌ آخرُ ، ووجهةُ نظرٍ مختلفةٌ ، فإنهم لما تحقّقوا عزمَ ابنِ عبادٍ بالاستنجادِ بيوسفَ ابنِ تاشفينَ ، وانفرادَهُ برأيهِ في ذلك ، أُصيبوا بشيءٍ من الإحباطِ ، وخافوا أطماعَ ابنِ تاشفينَ في بلادِهم ، فأخذوا يُراجعون ابنَ عبادٍ في ذلك ، ويلومونه على تصرفِهِ وانفرادِهِ

---

[1] نفح الطيب ، ووفيات الأعيان بتصرف .

بالرأي دونهم ، فمنهم مَنْ كاتبه ، ومنهم مَنْ حضر إليه وكلّمَهُ مواجهةً ، وحَذَّره عاقبة الأمرِ ، والنتائجَ المترتبةَ عليه، وقالوا له : الملكُ عقيمٌ ، والسيفان لا يجتمعان في غِمْدٍ واحدٍ .

فأجابَهُمُ ابنُ عباد بكلمتِهِ المشهورة والتي سارَتْ بعد ذلك حتى صارَتْ مثلاً : رعيُ الجمالِ خيرٌ من رعي الخنازيرِ ، والمعنى : أن كونَهُ مأكولاً ليوسفَ بنِ تاشفينَ أسيراً يرعى جمالَهُ في الصحراءِ ، خيرٌ من كونِهِ ممزَّقاً للأذفونشِ أسيراً له يرعى خنازيرَهُ في قشتالةَ .

ثم قال لعذّالِهِ ولوّامِهِ : يا قوم ، إني من أمري على حالتين: حالةِ يقينٍ ، وحالةِ شكٍ ، ولا بُدَّ لي مِنْ إحداهما ، أما حالةُ الشكِّ ، فإني إن استندتُ إلى ابنِ تاشفين أو إلى الأذفونشِ ففي الممكنِ أن يفيَ لي ويبقى على وفائِهِ ، ويمكنُ أن لا يفعلَ ، فهذه حالةُ الشكِّ .

وأما حالةُ اليقينِ فإني إن استندتُ إلى ابنِ تاشفينَ فأنا أُرضي الله تعالى ، وإن استندتُ إلى الأذفونشِ أسخطتُ الله تعالى ، فإذا كانَتْ حالةُ الشّك فيها عارضةً ، فلأي شيءٍ أدعُ

ما يرضي الله وآتي ما يسخطُهُ ...؟ فحينئذٍ قصَّرَ أصحابُهُ عن لومِهِ .

وفدُ ملوكِ الطوائفِ إلي يوسفَ بنِ تاشفين

وكان يوسفُ بنُ تاشفينَ قبل هذه الأحداثِ قد تاقَتْ نفسه إلى العبورِ إلى جزيرةِ الأندلسِ ، فلما عقد العَزمَ على ذلك أخذ في إنشاءِ السفنِ والمراكبِ ليستخدمَها في العبورِ إلى الأندلسِ ، فلما علم بذلك ملوكُ الأندلسِ كرهوا دخولَ ابن تاشفين جزيرتَهم ، واستعدوا لمنعِهِ من تحقيق ذلك ، ولكن صَعُبَتْ عليهم مقاومتُهُ ، وكرهوا أن يكونوا بين عدوَّين : الفرنجُ من شمالِهم ، والمسلمون من جنوبِهم ، فلما اشتدَّتْ وطأةُ الفرنجِ عليهم ، وبالغوا في إغارتِهم ونهبِهم وسلبِهم ، وما جرى من استهتارِ الأذفونش بهم واستصغارِهم ، وفرضِ شروطِهِ الآنفةِ الذكرِ عليهمُ مالوا إلى رأي المعتمدِ بنِ عبادٍ وأيّدوهُ ، واتفقوا معه على أن يرسلوا إليه بعضَ العلماءِ والفقهاءِ ، والوزراءِ والعقلاءِ ، وأصحابَ الرأيِ والعلمِ والحزمِ،

وهم مجمعون على الاستعانةِ بيوسفَ بنِ تاشفين لكونه مسلماً وعلى دينِهِم وعقيدتِهِم ، مؤمنون بقولِ ابنِ عبادٍ : رعيُ الجمالِ خيرٌ من رعي الخنازيرِ .

وانطلق أفرادُ الوفدِ إلى المغربِ لإقناعِ ابنِ تاشفينَ بمساعدتِهم ، وترغيبِهِ في الجهادِ معهم ضدَّ العدوِّ المشتركِ .

فلمّا قدِموا وجدوا الرسلَ والوفودَ تفِدُ إليه من مختلفِ ثغورِ الأندلسِ وبلدانها مستعطفين ، راجين ، مجهشين بالبكاءِ ، ناشدين الله والإسلامَ ، مستنجدين بفقهاءِ مجلسِهِ ، ووزراءِ دولتِهِ ، فيسمعُ إليهم ، ويصغي لقولِهِم ، ويحزنُ لأحوالِهِم ، وترقُّ نفسُهُ لهم ، وتأخذُهُ الحميّةُ لدينِهِ وعقيدتِهِ ، فينهضُ من مقامِهِ مُبشّراً ، مُطَمئناً واعداً بالاعتمادِ على اللهِ ، والتوكّلِ عليه أن يبذلَ ما بوسعِهِ أن يبذله لمساعدتهم ، وإنقاذِهِم وقتال عدوِهِ وعدوِهم ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً .

روايةٌ أخرى

وذكر ابنُ الأثيرِ فعلَ المعتمدِ بنِ عبادٍ من قتلِ رسلِ الأذفونشِ ، وتخوّف ملوكِ الأندلسِ من نتائجِ عمل ابنِ عبادٍ ، فذهب منهم رؤساءُ وزعماءُ إلى القاضي عبدِ الله بن محمدِ بنِ أدهمَ وقالوا له : ألا تنظرُ إلى ما فيه المسلمون من الذّلةِ والصغارِ ، وإعطاءِ الجزيةِ بعد أن كانوا يأخذونها ، وقد غلبتِ الفرنجةُ على البلادِ فأخذوها ولم يبقَ إلا القليلُ ، وإن طال هذا الأمر عادَتْ نصرانيةً كما كانَتْ أولاً وقد رأينا رأياً نعرضُهُ عليكَ ، قال : وما هو ...؟

قالوا : نكتب إلى عربِ إفريقيةَ ، ونبذلُ لهم إذا وصلوا إلينا شطرَ أموالِنا ، ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله .

فقال لهم : إنا نخشى إنْ وصلوا إلينا أن يخرّبوا بلادَنا كما فعلوا بأفريقيةَ ، ويتركوا الإفرنجَ ويبدؤوا بنا ، والمرابطون أصلحُ منهم ، وأقربُ إلينا .

فقالوا : فكاتبْ أميرَ المسلمين [1] ، واسألْهُ العبورَ إلينا أو إعانتَنا بما تيسَّرَ من الجندِ [2] .

فبينما هم كذلك يتفاوضون ، ويدرسون وضعَ البلادِ وكيفيةَ حمايتِها ، وسبلَ الدفاعِ عنها إذ قَدِمَ عليهِمُ المعتمدُ بنُ عبادٍ ، فعرض عليه القاضي ابنُ أدهمَ ما كانوا بصددِهِ من التشاورِ في مصلحةِ البلادِ وطلبِهِم من يوسفَ بنِ تاشفين أن يعبرَ إليهم لمساعدتِهِم ، وكان ابنُ عبادٍ قد عقد العزمَ على ذلك من قبلُ .

فقال له المعتمدُ بنُ عبادٍ : أنتَ رسولي إليه في ذلك .

فامتَنَع القاضي في بادئِ الأمرِ ، ولكنه لم يلبثْ أن وافق بعد إصرارِ ابنِ عبادٍ وسار إلى أميرِ المسلمين يوسفَ بنِ تاشفين ، فأبلغَهُ الرسالةَ ، وأعلَمَهُ بما فيه المسلمون من الخوفِ والقلقِ من مهاجمةِ العدو، وأن الملوكَ والأمراءَ وجميعَ المسلمين في الأندلسِ يستنهضونه إلى الجهادِ في سبيل اللهِ تعالى ، ويمتنعون

---

[1] هو يوسف بن تاشفين .

[2] الكامل في التاريخ لابن الأثير .

به من عدوِّهم ، ويسألونه العبورَ إليهم ، فالأمرُ في غايةِ الخطورةِ ، والوقتُ ضيقٌ ، والظروفُ قاسيةٌ وحرجةٌ لا تحتملُ التأخيرَ والتسويفَ .

مراسلةٌ بين الأذفونشِ ويوسفَ بنِ تاشفين

لم يكدِ القائدُ المؤمنُ يوسفُ بنُ تاشفين يسمعُ طلقاتِ الاستغاثةِ من مسلمي الأندلسِ تستنهضُهُ ، وتستثيرُهُ وتحركُ مشاعرَهُ ، وتلهبُ أحاسيسَهُ حتى أمر بتجهيزِ الجيشِ ، والاستعدادِ إلى عبورِ جزيرةِ الأندلسِ على الفورِ ، فأقبلَتْ إليه الجيوشَ من كلِ مكانٍ ، وتزاحمَتْ أمامَهُ يتلو بعضُهم بعضاً حتى تكامل عنده جيشٌ قويٌّ وكبيرٌ ، ثم انطلق يقودُهُ حتى عبر به البحرَ .

وكان المعتمدُ بنُ عبادٍ أيضاً قد جهَّزَ جيشاً كبيراً التقى بجيشِ ابن تاشفين بإشبيليةَ .

وخرج من قرطبةَ جيشٌ آخرُ ، وجاء المتطوعون للقتالِ من سائرِ بلادِ الأندلس ، اجتمعوا جميعاً تحت قيادة يوسفَ بنِ تاشفين ، والمعتمدِ بنِ عبادٍ استعداداً لخوضِ معركةِ الدفاع عن الشرفِ والبلادِ والعرضِ والدينِ .

ووصلتِ الأنباءُ إلى الأذفونشِ الذي غضب من ذلك غضباً شديداً ، فجمع على الفورِ جيشَهُ ، وحشَدَ جنودَهُ ، وسار بهم من طُلَيْطِلَةَ، وكتبَ إلى أميرِ المسلمينَ يوسفَ بنِ تاشفينَ كتاباً أغلَظَ له في القولِ ، وذكر فيه ما معه من الجنودِ والفرسانِ ، والعَدَدِ والعُدَّةِ ، وبالغ له في ذلك ، فلما وصله وعرف ما فيه استصغَرَهُ واستهجَنَ رأيَهُ ، وعلم طيشَهُ وتهوُّرَهُ وأمَرَ كاتبَه أبا بكرِ بنَ القصيرةِ أن يجيبَهُ ، وكان كاتباً مفلقاً ، فكتبَ وأجادَ ، فلما قرأه على ابنِ تاشفين قال له : هذا كتابٌ طويلٌ ، أحْضِرْ كتابَ الأذفونشِ ، واكتب في ظهرِهِ : (الذي يكونُ ستراه) ثم أرسلَهُ إليه ، فلما قرأهُ الأذفونشُ وعلم ما فيه ، ارتاع له وخشيَ منه ، وأدركَ أنه سيواجهُ قائداً عنيداً لا طاقةَ له به .

دخولُ يوسفَ بن تاشفين جزيرة الأندلسِ

وكان يوسفُ بن تاشفين حين عبرَ البحرَ ونزل جزيـــرةَ الأندلسِ ، أمَرَ بعبورِ الجمالِ ، وكان له في ذلك مأربٌ ذكيٌّ ، ورأيٌ مصيبٌ ، فاصطحب معه منها ما مَلأَ الجزيرةَ ، فـــارتفع رُغاؤها إلى عنانِ السماءِ ، ولم يكنْ أهلُ الجزيـــرةِ يعرفـــون الجمالَ ، ولم يسبقْ لهم أن رأَوها ، وكذلك خيلُهُم التي خافتِ الإبلَ ، وجَمَحَت من رؤيتها ، وسماعِ رُغائِها ، فهربَتْ منها ، وأصيبَ الإفرنجُ بخيبةِ أملٍ كبيرة ، وأدركوا أنَّ حربَهم خاسرةٌ لا محالةَ ، في حين تعزَّزَ موقفُ المسلمين ، وفرحوا بذلك فرحـاً شديداً ، وفُتِحَتْ أمامهم أبوابُ الأملِ بالنصرِ والظفرِ ، وجعـل السلطانُ يوسفُ بنُ تاشفين ينظرُ إلى الجيشِ العرمرمِ الكبـــيرِ الذي قَدِمَ إليهِ قبيلاً بعد قبيلٍ ، وأميراً بعد أميرٍ ، وفرقةً بعـــد فرقةٍ ، فجعل يحمَدُ اللهَ تعالى ويشكُرُه على هذا العز والسلطانَ الذي أيَّدَهُ به ، ودعَّمَ موقفَهُ ، وجعل منه قائداً ينالُ محبة ملوكِ الأندلسِ وثقتَهم وولاءَهم ، فكتب كتاباً يعرضُ فيه للأذفونـشِ

الدخولَ في الإسلامِ ، أوِ الجزيةَ أو الحربَ ، انطلاقاً من تعاليمِ الإسلامِ الساميةِ ، وآدابِ الجهادِ العاليةِ يقولُ فيه : بلغنا يا أذفونشُ أنكَ دعوتَ إلى الاجتماعِ بنا ، وتمنّيتَ أن تكونَ لك سفنٌ تعبرُ بها البحرَ إلينا ، فقد عبرنا إليكَ ، وقد جمع اللهُ تعالى في هذه الساحةِ بيننا وبينَكَ ، وسنرى عاقبةَ دعائِكَ . (وما دعاءُ الكافرين إلا في ضلالٍ) [1] .

استعدادُ الفريقين

لما بلغ كتابُ السلطانِ يوسفَ بنِ تاشفين الأذفونشَ يدعوه إلى الإسلام امتلأ غيظاً ، وعتا وطغى ، وجاش بحرُ غيظِهِ ، وزاد في طغيانِهِ ، وأقسم أن لا يبرحَ موضعَهُ حتى يلقاه ، ويردّهُ من حيثُ أتى ، أو يقتلَهُ ويقضيَ على جيشِهِ ، وقامتِ الأساقفةُ والرهبانُ فرفعوا صلبانَهم، ونشروا أناجيلَهم ، وبايعوه على الموتِ .

---

[1] الآية ٥٠ من سورة غافر .

وقام السلطانُ يوسفُ بنُ تاشفين والمعتمدُ بنُ عبادٍ يعظان جيشَهما ، ويحثّانِهِ على الجهادِ في سبيلِ الله

وقام العلماءُ والفقهاءُ والصالحون مقامَ الوعظِ ، وحضّوا الناس على الصبرِ والثباتِ ، وحذروهم من الهزيمةِ والفرارِ .

وأقبلَتْ طلائعُ الاستطلاعِ تخبرُ أن العدوَّ مقبلٌ عليهم في صبيحةِ اليومِ التالي ، وهو يومُ الأربعاءِ ، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مواقعَهم، واستعدوا لمعركةِ المصيرِ والشرفِ .

وفي صبيحةِ يومِ الخميسِ لجأ الأذفونش إلى استعمالِ المكرِ والخديعةِ ، فكتب إلى ابنِ عبادٍ يقولُ : غداً يومُ الجمعةِ ، وهو عيدُكم، والأحدُ عيدُنا ، فلْيكن لقاؤنا بينهما ، وهو يومُ السبتِ .

فعرضَ ابنُ عبادٍ الكتابَ على ابنِ تاشفين ، وقال له : إنها حيلةٌ من الأذفونشِ ومكرٌ منه وخديعةٌ ، وإنه يقصدُ بذلك أن يقومَ بغدرِنا يومَ الجمعةِ ، فلْيَكُن الناسُ على استعدادٍ له يومَ الجمعةِ النهارَ كلَّهُ لمواجهتِهِ ، ومقاومتِهِ وردِّ عدوانِهِ .

رؤيا صالحة

وبات الفريقان تلك الليلةَ على أُهْبةٍ كاملةٍ واحتراسٍ شديدٍ وجواسيسُ كل فريقٍ تتردَّد بين الجميعِ ، وتسترقُ السمعَ ، وتتلقفُ الأخبارَ .

وبعد مضي جزءٍ من الليل انتبه أحدُ جندِ المسلمين وكان عابداً زاهداً تقيّاً ، يقالُ له : أبو العباسِ أحمدُ ابنُ رُقيلةَ القرطبيُّ الفقيهُ الناسكُ المجاهدُ في سبيلِ اللهِ ، وكان قد رأى رؤيا صالحةً انتبهَ على أثرِها ، وفرح بها فرحاً شديداً ، فقصّها على أصحابِهِ وقال لهم : إنه رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فبشره بالنصرِ والفتحِ والموتِ على الشهادةِ في صبيحةِ تلك الليلةِ ، فتأهَّبَ للقاءِ ربهِ عز وجل ، ثم دعا وتضرَّعَ وتطيبَ استعداداً للموتِ في ساحةِ الوغى وهو يبيعُ نفسَهُ ، ويبذلُ دمَهُ في سبيلِ ربهِ عز وجل .

انتهى خبرُ هذه الرؤيا الصادقةِ إلى ابن عباد ، فبعث إلى السلطانِ يوسفَ يخبرُهُ بها أملاً بالنصرِ ، وتفاؤلاً بالفتحِ والظفرِ.

رؤيا الأذفونشِ

اجتمع للأذفونشِ عددٌ كبيرٌ من الجندِ والفرسانِ ، فأصابه الطيشُ والغرورُ وأخذتْهُ العزّةُ بالأثمِ ، فقال وقد نظر إلى ما اجتمع إليه من عددٍ وعُدةٍ : بهؤلاءِ أقاتلُ الجنَ والأنسَ وملائكةَ السماءِ فالمقلّل لهم يقولُ : المختارون أربعونَ ألفَ دارعٍ ، ولكلِ واحدٍ أتباعٌ ، وأما النصارى فيعجبون ممن يزعمُ ذلك ، ويرون أنهم أكثرُ من ذلك كلِهِ .

واتفق الجميعُ على أن عدد المسلمين أقلُ من ذلك بكثيرٍ .

وعلى أثرِ ذلك رأى الأذفونشُ في نومِهِ كأنه راكبُ فيلٍ يضربُ نقيرةَ طبلٍ ، فلما استيقظ هالته تلك الرؤيا ، وأضحى خائفاً منها وقلقاً ، فجمع القساوسةَ والرهبانَ ليعبّروها له ، فلم يجدْ عند أحد منهم جواباً، فاختار رجلاً من اليهودِ فأرسلَهُ ليأتيَهُ بتأويلها من المسلمين ، فأرشَدَهُ بعضُهم إلى عالمٍ بتعبيرِ الرؤيا ، فقصَّها عليه ونسبها إلى نفسه ، فقال له المعبِّر : كذبتَ ، ما هذه الرؤيا لك ، ولا أعبرها لكَ ، إلا إن صدقتَني، وأخبرتَني مَنْ هو صاحبُ الرؤيا .

فقال له : وتكتمُ عليَّ ... ولا تخبر عني أحداً ...؟

قال : أكتمُ عليكَ .

فقال : الرؤيا للأذفونشِ .

فقال المعبِّر : صدقتَ ، ولا يراها غيرُهُ ، والرؤيا تــدلُ على بلاءٍ عظيمٍ ، ومصيبةٍ فادحةٍ في عسكرِهِ ، وتفسيرُها قولــه تعالى : (ألم تَر كيف فعل ربُك بأصحابِ الفيلِ) [1].

وأما ضربةُ النقيرةِ ، فتأويلُها : (فإذا نُقِرَ في الناقورِ فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ) [2].

فانصرف اليهوديُّ وذكر للأذفونشِ ما وافق خــاطرَهُ ، فصدَّقَهُ واطمأنَّ لكلامِهِ ، وازدادَ غطرسةً وبطــراً ، ومكــراً وغروراً ، (ولا يحيق المكرُ السيئُ إلا بأهلِهِ) [3]. ونسيَ المغــرور أن النصرَ بيدِ الله ، لا بالعدد ولا بالعدةِ ، فــ(كم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ مع الصابرين) [4].

---

(١) الآية ١ من سورة الفيل .

(٢) الآية ٨ ــ ٩ من سورة المدثر .

(٣) الآية ٤٣ من سورة فاطر .

(٤) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

اللقــاء

وفي صبيحةِ يوم الأربعاءِ الثالثَ عشرَ من شهرِ رجبٍ سنةَ تسعٍ وسبعين وأربعمائةٍ .

وقــيل : في شـــهر رمضانَ في العشرِ الأواخرِ من السنةِ المذكورةِ .

وقـــال البياســـي : كان ذلك في المحرمِ سنةَ تسعٍ وسبعين وأربعمائةٍ.

ففـــي صبيحةِ أحدِ الأيامِ المذكورةِ أقبلَتْ جنودُ الأذفونشِ كالسيلِ الجارفِ يتبعُ بعضُها بعضاً حتى اجتمعَت بمكانٍ واسعٍ مـــن الأرضِ يســـمى الزّلاقة بالقرب من بَطَلْيوسَ [1] ، وبين الموضعين أربعةُ فراسخَ .

واجتمعَت جنودُ المسلمين بالزلاقة أيضاً بقيادةِ المعتمد بنِ عبادٍ ، ثم وافاهم يوسفُ بنُ تاشفينَ بجنودِهِ ونزل على أقلَّ من فرســخٍ مـــن جنود العدوِ ، فاقترح المعتمدُ بنُ عبادٍ على ابنِ تاشـــفينَ أن يتصدى هو أولاً للعدو ، فإن لم يستطعِ الصمودَ

---

[1] بَطَلْيوس : مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنه غربي قرطبة .

أمامَهم ، وهرب بجنودهِ أن يميلَ يوسفُ بنُ تاشفينَ عليهم ، ثم ترتدُّ جنودُ ابنِ عباد ، فيصبحُ العدوُ بينهما ، فيكونُ العدوُّ كما يقـــالُ : بين فكّي كماشةٍ ، فينْـــزِلُ به جنودُ المسلمين ضرباً وتقتيلاً حتى يطحنوه ويقضوا عليه .

وحينَ أقبل الليل بظلامهِ جاء فارسان من طلائعِ المعتمدِ بنِ عباد يخبرانه أنهما أشرفا على معسكرِ الأذفونش فسمعا ضوضاء الجـــيوشِ ، واضـــطرابَ الأسلحةِ ، ثم جاءَتِ الجواسيسُ من داخلِ معسكرِ العدوِ تقولُ : استرقنا السمعَ فسمعنا الأذفونشَ يقـــولُ لأصحابه : إن ابنَ عبادٍ مسعرُ هذه الحروبِ ، وهؤلاء الصـــحراويون [1] وإن كـــانوا أهلَ حفاظٍ وذوي بصائرَ في الحـــروبِ فهم غيرُ عارفين بهذه البلادِ ، وإنما قادهُمُ ابنُ عباد، فاقصدوهُ واهجموا عليه واصبروا فإن انكشف لكم هان عليكمُ الصحراويون بعده ، ولا أرى ابنَ عبادٍ يصبرُ لكم إنْ صدقتموه الحملةَ.

فـــلما سمـــع ابنُ عبادٍ هذا الكلامَ بعث كاتبَهُ أبا بكرِ بنَ القصـــيرةِ إلى السلطانِ يوسفَ يخبُرُهُ بغدرِ الأذفونشِ وتحريضِ جيشهِ على الهجومِ والمباغتةِ .

---

[1] يقصد بالصحراويين يوسف بن تاشفين وجيشه .

فمضـــى ابنُ القصيرةِ إلى السلطانِ يوسفَ يخبرُهُ بذلك ، ويستحثُهُ النصرَ والمساعدةَ .

فقال له : قلْ له إني سأقرُبُ منه إن شاء اللهُ تعالى ، وأمر يوسفُ بعضَ قوادهِ أن يمضيَ بكتيبةٍ فيدخلَ بها معسكرَ العدوِ فيُضرمَها ناراً ما دام الأذفونشُ مشتغلاً مع ابنِ عباد .

فـــرجع ابنُ القصيرةِ فلم يصِلْ إلى ابنِ عبادٍ إلَّا وقد غشيَتْهُ جنودُ العدوِ ، ففوجئَ ابنُ عبادٍ ، وصُدمَ بصورةٍ عنيفةٍ قطَعَتْ آمالَـــهُ ، وبدَّدَت أحلامَهُ وجعلَتْهُ يصابُ باليأسِ والقنوطِ من وصولِ النجدةِ من السلطانِ يوسفَ .

الغدر

كـــان موعدُ المناجزةِ بين الفريقين يوم السبتِ ، ولكنَّ الأذفونشَ غَدَرَ ومكر ، ففي سَحَرِ يومِ الجمعةِ مالَ الأذفونشُ بجموعِـــهِ على معسكر ابنِ عبادٍ ، وأحاط به من كلِ جهةٍ ، فأوقدَتْ نارُ الحربِ ، واشتدَّ أوارُها ، وحميَ وطيسُها ، بينما الـــناسُ في طمأنيـــنةٍ من أمرِهِم إذ فوجئوا بسيوفِ العدوِ على

رقـــابِهِم فاضطربوا ، وساء ظنُّهم وصُعِقوا من هولِ المفاجأةِ ، وتدافَعَــــتْ قلوبُهـــم ، ووقع الشرُّ ، ورجفتِ الأرضُ، ودبَّتِ الفوضى ، وكَثُرَ القتلُ بين صفوفِ المسلمين ، وصبر ابنُ عبادٍ صـــبراً لم يُعْهَد مثلُهُ لأحدٍ ، واستبطأ مجيءَ يوسفَ بنِ تاشفين وهو يلاحظُ طريقَهُ ، وينظرُ بترقبٍ وتلهفٍ قدومَهُ ، حتى اشتدَّ عليه وعلى جنودِهِ البلاءُ ، وعضّتْهُم الحربُ ، وقامَتْ بهم على ساق ، فانكشف بعضُ قادةِ ابنِ عبادٍ ، وفرَّ الجنودُ والفرسانُ ، وغـــادروا أرضَ المعركةِ ، وأخلَوا أماكنَهم ، وصُرِعَ ابنُ عبادٍ وأثخنــــتْهُ الجــراحُ ، وأصابتْهُ ضربةٌ شديدةٌ فَلَقَتْ هامَتَهُ حتى وَصَــلَتْ إلى صَدغِهِ [1] وجُرِحَت يدُهُ اليمنى ، وطُعِنَ في أحدِ جانبـــيهِ ، وعُقِرَتْ تحتَهُ ثلاثةُ أفراسٍ كلما هلك واحدٌ قُدِّمَ له آخــرُ ، وبيـــنما هو في حالتِهِ النفسيةِ المترديةِ يقاسي حياضَ المـــوتِ، يضربُ بسيفِهِ يميناً وشمالاً وهو يائسٌ من الحياةِ تذكر ابناً له صغيراً كان مُغْرَماً به تركه في إشبيليةَ مريضاً ، وكان قد كناه أبا هاشمٍ، فأنشد قائلاً :

---

[1] الصدغ : ما بين لحظ العين إلى أصل الأذن ، والجمع أصداغ .

أبـا هاشمٍ هشمتني الشِّـفار [1] فلله صبري لِـذاكَ الأوارْ [2]
ذكرتُ شُخَيصَك تحت العجاج فلـم يثْني ذكـرُهُ للفِـرار

فلم يكدِ ابنُ عبادٍ يفرغُ من كلامِه حتى جاءه الفرجُ بعد الصبرِ، والنصرُ بعد الهزيمةِ ، والأملُ بعد اليأسِ ، فأبصر جنودَ ابـنِ تاشـفينَ مقبلةً إليه تردُّ عنه جموعَ المعتدين ، وتدفعُ عنه الـبأسَ والألَمَ ، فكان أولَ مَنْ وافاه داودُ بنُ عائشةَ ، وكان بطلاً شجاعاً ، وشهماً مقداماً . وبمجيئِه نُفِّسَ عنِ ابنِ عبادٍ ، وعاد إليه الأمل متجدداً .

هزيمةُ الأذفونشِ

كان الأذفونشُ وجنودُهُ يعتقدون أن السلطانَ ابنَ تاشَفينَ في جملةِ المنهزمين ، فازدادوا غطرسةً وغروراً ، وأخذَتْهُمُ العزةُ بـالإثمِ ، ونشروا أناجيلَهم ، ورفعوا صلبانَهم ، وأقسموا على استئصالِ المسلمينَ وإبادةِ خضرائِهم ، ونسُوا أن العبرةَ بالخاتمةِ،

[1] الشفار : جمع شفر ، والشفرة : المدية ، وهي السكين العريض والجمع شفار وشفرات مثل سجدة وسجدات.
[2] الأوار : شدة حر الشمس ولفح النار ووهجها والعطش . وقيل الأوار : الدخان واللهب .

وأن النصرَ بيدِ الله ، وأن العاقبةَ للمتقين ، وأنّ ما لمسوه ليس نصراً حقيقياً ، إنما هو استدراجٌ ، وبدايةٌ لهزيمةٍ بشعةٍ ومنكرةٍ ســوف تحيقُ بهم ، وتنــزلُ بساحتِهِم فلا تبقي منهم أحداً ، وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ منقَلبٍ ينقلبون .

في هــذه الــلحظاتِ الرهيبةِ ، والظروفِ الحاسمةِ أقبل السلطانُ ابنُ تاشفينَ يقودُ جنودَهُ ، ويقتحمُ بهم جيشَ العدو ، وضــربتِ الطــبولُ ، واهتزتِ الأرضُ ، وتجاوبتِ الآفاقُ ، وارتفــع صــهيلُ الخــيولِ ، وعلا رُغاءُ الإبلِ حتى بلغ عنانَ الســماءِ، فــلما سمعتْ خيلُ الفرنجةِ هذه الأصواتَ أحجَمَتْ عــنها، وغادرَتْ أماكنَها ، وانطلقَتْ تعدو بفرسانِها ، ووقع الخوفُ في قلوبِ الفرنجةِ الذين غادروا أماكنَهم ولاذوا بالفرارِ، فتبعهم ابنُ تاشفين يقفو أثَرَهم بجيشٍ فيه حماةُ الثغورِ ، وزعماءُ الأندلسِ ، وفرسانُ المسلمين ، وجعل ابنَه عبدَ الله على مقدمةِ الجيشِ ، وسار وهو ينشدُ لنفسِهِ متفائلاً بالنصرِ قائلاً :

لا بـدَّ مـن فـرج قريـب	يـأتيكَ بـالعجب العجيـب
غـزوٌ عليـكَ مبـارَكٌ	سـيعودُ بـالفتح القريـب
لله سـعدُكَ إنـه	نكـسٌ علـى ديـن الصليـب
لا بُـدَّ مـن يـوم يكـونُ	لـه أخـاً يـومُ القليـب[1]

وانطلق السلطانُ يوسفُ يفتكُ بفلولِ المنهزمين وطبولُـهُ تدُقّ مؤذنةً بنهايةِ المعتدين وأصواتُها تصعدُ إلى الجوِ ، وتـرددُ أصداؤها في الأفقِ . فلما أبصرَهُ الأذفونـشُ دُهِـشَ وصُـدِمَ بصورةٍ عنيفةٍ ، وأيقن بالفشلِ الذريعِ ، والهزيمـةِ المنكـرةِ ، وأدركَ أن السلطانَ يوسفَ فاجأه بخطةٍ ذكيةٍ وناجحةٍ ، وقضى على غدرِه ومكرِه ، وجعله يصابُ بخيبةِ أملٍ محققةٍ جعلَـتْ أحلامَهُ تذوبُ وتتلاشى وتصبحُ هباءً منثوراً .

ولكنه مع ذلك قام بمحاولةٍ يائسةٍ معتقداً أنه ربما يسـتطيعُ أن يصدَّ حملةَ ابنِ تاشفين ويعيدَ اعتبارَه ، ويحفظَ مـاءَ وجهـهِ ، ويتمسكَ بكرامتِهِ أمام جنودِهِ ، فوجَّهَ حملتَه ، ونادى جنودَهُ ، وقصد بهم جيشَ ابنِ تاشفين الذي كان متيقظاً وحاذراً مـن

[1] يريد بيوم القليب : يوم معركة بدر الكبرى .

مكرِهِ وغدرِهِ ، فبادره وصدمه بجمعِهِ ، ورده وجيشَهُ على أعقابِهِم خاسرين متوَّجين بالخزي والعارِ ، متحملين نتيجةَ الغدرِ والخيانةِ .

النصرُ

عادَ الأملُ مجدداً إلى ابنِ عبادٍ حين أبصر السلطانَ ابنَ تاشفين يصدُّ جموعَ المعتدين ، ويبعدُهم عن أماكنِهِم ، ويذيقهم مرارةَ الهزيمةِ ، فنسي مُصابَهُ ، ولم يشعرْ بآلامِهِ ، واستبشر بالنصرِ ، واستنشق ريحَ الظفرِ ، واستعاد نشاطَهُ وحيويتَهُ ، وانطلق بكل قوةٍ وأملٍ فانضمَّ إلى جموعِ المقاتلين المؤمنين ، فصدقوا الحملةَ على المعتدين ، وشرّدوهم في الأرضِ ، ومزّقوهم شرَّ ممزقٍ ، وانطلقوا يلاحقونهم بكلِ جهةٍ ، فتزلزلت الأرضُ بحوافرِ خيولِهِم ، وعلاهُمُ النّقعُ حتى أظلم النهارُ بالعجاجِ والغبارِ ، وخاضتِ الخيل في الدماءِ واهتزت الأرضُ ، وتجاوبتِ الجبالُ والآفاقُ تُرددُ أصداءَ تكبيرِ وتهليلِ المسلمين الذي أوقع الرعبَ والخوفَ في قلوبِ الكافرين ، فأنزل اللهُ نصرَهُ على عبادِهِ ، وتراجعَ المنهزمون من أصحابِ

ابنِ عبادٍ حين علموا بالتحامِ الفريقين ، وصدقِ ثبات المؤمنين ، ونزولِ النصرِ من السماءِ ، وأبصروا بأعينِهِم هزيمـــةَ العــدوِ وتفرقَهم في الأرضِ لا يلوون على شـــيءٍ ، والــذي أثلــج صدورَهم ، ورفع من معنوياتِهِم مرورُ الأذفونشِ أمامهم هاربـاً منهزماً يطلبُ النجاةَ وقد طُعِنَ طعنةَ شديدةً أفقَدتْهُ قوتَـــهُ ، وجعلَتْهُ عاجزاً عن حملِ السلاحِ ، قوياً في الهزيمةِ ، شـــديداً في الهربِ ، يَنشُدُ الرحمةَ ، ويرجو العفوَ والشفقةَ .

وكيف يستجابُ له ، وكيف يُسمَعُ له ، وكيف ينـــالُ العفوَ والشفقة ، أو تصيبُهُ الرحمةُ ... !!... ؟؟

كيف يرجو هذا وذاك وهو من أكابرِ مجرمي الحـــروبِ الّذين يستحقون المحاكمةَ والإعدامَ ، وعدمَ العفوِ والرحمةِ ...؟؟

لقد خان العهدَ والميثاقَ ، فغدر ومكر ، وتـــآمر علـــى المسلمين ، وعمل على حربِهِم وإبادتِهِم ، ولم يلـــتزمْ بـــأدبِ القتالِ ، ولم يحافظْ على العهدِ والذمةِ . فباغَتَ المسلمين وهــم آمنون ، وانقضَّ عليهم في معسكرهم ، وأعمل فيهمُ الســيفَ وأنزل فيهمُ القتلَ معتقداً أنه ناجٍ من العقابِ لأنه بغدرِهِ ومكرِهِ

قد تفوقَ على خصمِهِ ، وانتصر عليه . وفيه وفي أمثالِهِ من الكفرة والغادرين يقولُ الله تبارك وتعالى : (إنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الذينَ كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدَتْ منهم ثم ينقضون عهدَهم في كلِ مرةٍ وهم لا يتقون . فإمّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الحربِ فشرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهم لعلّهم يذّكّرون . وإمّا تخافَنَّ مِنْ قومٍ خيانةً فانبذْ إليهم على سواءٍ إنَّ الله لا يحبُ الخائنين . ولا يحسَبَنَّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون .) [1] .

ثم يأمرُ الله عز وجل المؤمنين أن يكونوا على استعداد كاملٍ ، وحذرٍ شديدٍ من هؤلاء وأمثالِهم ، وأن يعدّوا العدةَ ، ويجمعوا القوةَ للتصدي لغدرِهم وإبطالِ مكرِهم ، والله معهم وهو ناصرُهم ومؤيدهم ما داموا مؤمنين ملتزمين أوامرَ ربِهم ، مجتنبين نواهيَهُ ، عاملين على طاعتِهِ والقتالِ في سبيلِهِ بكلِ صدقِ نيةٍ ، وإخلاصِ عملٍ ، فهو الكفيلُ بنصرِهم ، حيث يقولُ في كتابِهِ العزيزِ : (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباطِ الخيلِ ترهبون به عدوَّ اللهِ وعدوّكم وآخرين من دونِهم

---

[1] الآيات ٥٥ ــ ٥٩ من سورة الأنفال .

لا تعلمونَهُمُ اللهُ يعلمُهم وما تنفقوا من شيءٍ في سبيلِ اللهِ يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلَمون .)[1]

(ولينصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصُرُهُ إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيزٌ.)[2]

(ولقد سبقَتْ كلمتُنا لعبادِنا المرسَلين . إنهم لهمُ المنصورون . وإنَّ جنَدنا لهمُ الغالبون .)[3]

(يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصروا اللهَ ينصُرْكم ويثبتْ أقدامكم . والذينَ كفروا فتعساً لهم وأضلَّ أعمالَهم .)[4]

فمتى توافَرَتْ هذه الشروطُ في المسلمين ، مع الأخذِ التامّ والكاملِ بأسبابِ النّصْرِ ، نصرَهُم اللهُ ، ومكّنَ لهم في الأرضِ ، وأيّدَهم بجنودٍ لم تَرَها الأعينُ ، وكان معهم يحميهم ، ويمنعُهم ، ويؤيدُهم بنصرِهِ ، ويدفعُ عنهم كلَّ شرٍ وبلاءٍ ، وهو

---

[1] الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

[2] الآية ٤٠ من سورة الحج .

[3] الآيات ١٧١ — ١٧٣ من سورة الصافات .

[4] الآيتان ٧ — ٨ من سورة محمد .

القائلُ : (وكان حقّاً علينا نصرُ المؤمنـــين .) [1] صـــدق الله العظيم .

استئنافُ القتالِ

هربَ الأذفونشُ أمامَ السّلطانِ ابنِ تاشفينَ بعـــد أن مُـــنيَ بهزيمةٍ كبيرةٍ شلَّتْ قدرتَهُ القتاليّةَ ، وجعلَتْ جيشَهُ أشلاءً متفرقةً في شَرْق البلاد وغربِها ، وكان الأذفونشُ وجنودُهُ يعتقدونَ في بدءِ المعركةِ أنَّ ابنَ تاشفينَ كان في جملةِ المنهزمينَ ، ثم سـرعانَ ما خاب فألُهُم ، وتبدَّدَتْ أحلامُـــهُم ، وأصيبـــوا بالدهشـــةِ والاستغرابِ وخيبةِ الأملِ حين علمُوا أنّه هو الذي نزل عليـــهم كالصّاعقةِ فبدَّدهم ، وشتَّتَ شملَهم ، وفرَّق جمعَهم ، ومزَّقَـــهم شرَّ ممزَّق ، لذلك جمعُوا جموعَهم ، وتشـــاوروا في أمرِهِـــم ، وقرّروا أن ينتقمُوا لأنفسِهِم ، ويثأرُوا لهزيمتِـــهِم ، ويقومـــوا بهجومٍ مباغتٍ على معسكرِ المسلمين ، ويُشعلوها عليهم حرباً،

---

[1] الآية ٤٧ من سورة الروم .

ويُوقدُوها عليهم ناراً تحرقُ الأخضرَ واليابسَ ، ولا تُبقــي ولا تذرُ منهم أحداً .

فوضعُوا خطةً رهيبةً للغدرِ بالمسلمين والإيقاعِ بهم ، ولكنَّ ابنَ تاشفينَ كان حذراً منهم ، ومتيقّظاً لحركاتِهم ، ومتوقعــاً منهم الغدرَ والخيانةَ ، والقيامَ بمحاولة انتقامٍ لما أصابهم وحــلَّ بهم .

وفجأةً انقضُّوا على معسكرِ المسلمين فــأخرجوهم منــه وكادتِ الدائرةُ تدورُ عليهم ، فخرجوا منه ، ثم كرّوا عليــهم فأخرجوهم منه ، ثم كرَّ الأذفونشُ مرةً أُخرى فأخرج المسلمينَ من المعسكرِ ، ثم كرُّوا عليه وقاتلوه حتى أخرجوه ، هــذا ولم تزلِ الكَرّاتُ بينهم تتوالى ، والحربُ سجالٌ مــرةً للمســلمين وأُخرى للإفرنجِ حتى اختَار السلطانُ ابنُ تاشفينَ فرقــةً مــن السودانِ ، وكانوا أربعةَ آلافِ مقاتلٍ لا يلينونَ ، ولا ينثنــونَ ، ولا يعرفونَ معنى التراجُعِ أو الهزيمةِ ، فدخلوا معسكرَ العــدوّ بدَرَقِ اللمطِ وسيوفِ الهندِ . ومزاريقِ الزّانِ ، فطعنوا الخيــلَ فرمَحَتْ بفُرسانِها ، وأَحجمَتْ عن أماكنِها ، فأبصرَ الأذفونــشُ

فارساً من فرسانِ كتيبةِ السودانِ نفِدَتْ مزاريقُهُ ، فهجمَ عليه وأهوى ليضربَهُ بالسيفِ ، فأمسك به الأسودُ ، وقبضَ على عنانِهِ قبضةً قويةً وعنيفةً شلَّتْ حركتَهُ ، وجعلَتْهُ يحسُّ كأنَّ روحَهُ كادَتْ تخرجُ من أنفاسِهِ ثم انتضى خنْجراً كان مُتَمنطقاً به ، فأثبتَهُ في فخذِهِ فكسر حلقَ درعِهِ ، وتقطّعَتْ حبالُ سرجِهِ فسقط من ظهرِ فرسِهِ وهَوى على الأرضِ ، فظنَّ الفارسُ الأسودُ أنه مات فتركه يتخبّطُ بدمائِهِ ، وكان وقتَ الزوالِ ، فهبَّتْ ريحُ النصرِ ، وأنزل اللهُ سكينَتَهُ على عبادِهِ المؤمنين ، ونصرَ دينَه العظيمَ ، وصدق المسلمون الحملةَ على عدوِهم ، فأزالوهم عن مواقِعِهم ، وأخرجوهم من مُعسْكرِهم ، فجعلوا يفّرون أمامَهم ، بعد أن ولّوا ظهورَهم ، وأسلمُوا أعناقَهم لسيوفِ المسلمين تصفعُهم ، والرماحُ تطعنُهم ، والمسلمون يُلاحقونهم حتى ألحقوهم بربوةٍ لجؤوا إليها واعتصموا بها ، فطوّقَها المسلمون ، وأحدقَتْ بهمُ الخيلُ ، وارتفع صهيلُها فملأ المكانَ ، وترددتْ أصداؤهُ في الأفقِ ، ووقع الخوفُ والذعرُ في قلوبِ الأعداءِ ، وأصبحوا في حالةٍ نفسيةٍ سيئةٍ فقدوا بها

معنوياتِهِم ، وسيطر عليهمُ الرعبُ ، وخيَّمَ عليهم شبحُ الموتِ، تفطَّرَتْ منه قلوبُهم ، وتزلزلَتْ به نفوسُهم ، وارتعدَتْ منه فرائصُهم ، وفقدوا كلَّ أملٍ بالنجاةِ .

فلما أقبل الليلُ وادلهمَّ الظلامُ ، وخيَّمَ السكونُ على كلِ شيءٍ حتى ملأَ الزمانَ والمكانَ ، انسحب المسلمون ، وغادروا الربوةَ ، وتركوا العدوَّ وقد فقد توازنَهُ والسيطرةَ على أعصابِهِ، وأصبح نهباً للخوفِ والقلقِ والاضطرابِ .

في هذه اللحظاتِ الرهيبةِ والحاسمةِ أرسل الأذفونشُ مَنْ يستطلعُ له الموقفَ ، وهلِ المسلمون ما زالوا في مواقِعِهِم أم غادروها وانسحبوا...؟

فلما رجع أخبرهم بانسحابِهِم وإخلاءِ مواقِعهِم ، فأمر الأذفونشُ أصحابَهُ بالخروجِ من مخبئِهِم ومغادرةِ الربوةِ .

وبهذا أفلتَ من قبضةِ المسلمين ، ونجا من أظفارِ المنيةِ بعد أن تشبثَتْ به وبأصحابهِ وصار من الموتِ كقاب قوسين أو أدنى ...!!

واستولى المسلمون على ما كان في معسكرِ العدوِ من مالٍ وسلاحٍ وعتادٍ وأُمِرَ بضمِ رؤوس القتلى فاجتمع منهم تلٌ عظيمٌ، جُعِلَ منه صوامعُ يصعدُ عليها المسلمون للأذان ، والمخذولُ لعنه اللهُ تعالى ينظرُ إلى موضعِ المعركةِ ، ومكانِ الهزيمةِ فلا يرى إلا نكالاً محيطاً به ، وشرا نازلاً عليه وعلى أصحابِهِ

وقد روَتِ المراجعُ التاريخيةُ أن موضعَ الزّلاقةِ على اتساعِهِ ما كان فيه موضعُ قدمٍ إلا عليه جثةُ قتيلٍ أو دمٌ .

وأقام السلطانُ يوسفُ ، والمعتمدُ بنُ عبادٍ بذلك الموضعِ أربعةَ أيامٍ ثم جُمِعَتِ الغنائمُ وعُرِضَت على السلطانِ يوسفَ فعفَّ عنها ، وأبى أن يأخذَ منها شيئاً ، وآثَرَ بها ملوك الأندلسَ، وأعلن لهم أن مقصدَهُ من مقدمِهِ هذا الجهادُ في سبيلِ اللهِ ، ونيلُ الأجرِ من الله تعالى، وابتغاءُ عفوِهِ ومغفرتِهِ .

فلما رأتْ ملوكُ الأندلسِ عفةَ السلطانِ يوسفَ وإيثارَهم بالغنائمِ عَظُمَ في أعينِهم ، وعَلَتْ منزلتُهُ لديهم ، فأحبوه وأكرموه وشكروا له ذلك ، واعترفوا له بالفضلِ والسيادةِ .

أما الأذفونشُ فإنه رجع إلى بلادِهِ متوَّجاً بالخزي والعارِ ، يجرُّ أذيال الخيبةِ والهزيمةِ وقد فقد جميعَ فرسانِهِ ومستشـــاريه ، ولم يسمعْ من قومه إلا اللعنَ والشتائمَ ، ونــــواحَ الثكـــالى ، وبكاءَ الأراملِ واليتامى ، فحزن لذلك حزناً عميقاً ، واهتمَّ منه هماً شديداً وأقلع عن الطعامِ والشرابِ حـــتى مـــات جوعـــاً وعطشاً، وهماً وغماً ، وتلك نهايةٌ طبيعيةٌ لمن أعرض عن ذكـــرِ اللهِ ، وحارب اللهَ ورسولَهَ ، وصدَّ عن سبيلِهما ، واتخذ الغـــدرَ والمكرَ والخديعةَ سبيلاً للنصرِ ، ونقْضَ العهدِ والميثاقِ وســـيلةً للتفوقِ والظفرِ ، وهذا كمعنى قولِهِ تعالى : (ومكـــروا مكـــراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظُرْ كيف كـــان عاقبـــةُ مكرِهِم أنا دمّرْناهم وقومَهم أجمعين .) [1] صدق الله العظيم .

على هامش المعركة

انتهت معركةُ الزلاقةِ بنصرٍ ساحقٍ للمسلمين ، وهزيمـــةٍ بشعةٍ ومنكرةٍ لخصومِهِمْ المعتدين ، انتـــهت بمـــوتِ قـــائِدِهِم

---

[1] الآيتان ٥٠ ــ ٥١ من سورة النمل .

الأذفونشِ الذي قاده الغرورُ والغطرسةُ إلى معركةٍ غيرِ متكافئةٍ كان فيها حتفُهُ والقضاءُ على كبرِه وغرورِه ، ونهايةٌ لتخطيطٍ طويلٍ ، واستعدادٍ تامٍ وكبيرٍ ، وتآمرٍ بالليلِ والنهارِ انتهى في أيامٍ قليلةٍ لم يستطعِ الأذفونشُ وجيشهُ الكبير خلالها الصمودَ في وجهِ جندِ اللهِ المؤمنين على الرغم من غدرِهِم ومكرِهِم وعدمِ التزامِهِم بالعهدِ والميثاقِ ، وبذلك عرَّضَ نفسَهُ وجيشَهُ للذلِ والعارِ والهزيمةِ والهوانِ ، ولم يلقَ من أمتِهِ إلا السبَّ واللعنَ والتوبيخَ ، وفي ذلك وأمثالِهِ يقولُ الحقُ تبارك وتعالى : (ألم تَرَ إلى الذينَ بدَّلوا نعمةَ اللهِ كفراً وأحَلّوا فوقهم دارَ البوارِ ، جهنمَ يصلونها وبئس القرارُ . وجعلوا لله أنداداً لِيُضِلُّوا عن سبيلِهِ قلْ تمتعوا فإن مصيرَكم إلى النارِ)[1] صدق اللهُ العظيم .

في حينِ اجتمعَتْ كلمةُ المسلمين على الصدقِ والإخلاص وطاعةِ اللهِ والرسولِ ، وتوحيدِ الصفِ ، وجمعِ الكلمةِ ، ورأبِ الصدعِ ، والثباتِ في وجهِ العدوِ دفاعاً عن العزةِ والكرامةِ والشرفِ والأعراضِ والأنفسِ والدينِ .

---

[1] الآيات ٢٨ ـــ ٣٠ من سورة إبراهيم .

لم يقاتلوا لمغنمٍ أو شهرةٍ ، أو كسبِ لقبٍ ، أو نيلِ رتبةٍ فكانوا أهلاً للنصر والفوزِ والظفرِ مع قلةِ عددِهِم ، وكثرةِ عدوِهم .

كانوا أهلاً لتأييدِ اللهِ تعالى حين التزموا أوامرَهُ ، واجتنبوا نواهيَهُ، وعملوا بطاعتِهِ ، وقاموا بما يرضيه كانوا أهلاً للنصرِ وتأييدِ اللهِ تعالى حين طبقوا قولَهُ تعالى : (إنَّ اللهَ يحبُ الذين يقاتلون في سبيلِهِ كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ) [1] .

وحين عملوا بقول النبيِ صلى الله عليه وسلم : (مَنْ قاتلَ لتكون كلمةُ اللهِ هي العليا فهو في سبيلِ اللهِ) [2] .

حين هبُّوا من سُباتِهم ، واستيقظوا من نومِهم ، وقاموا من غفلتِهِم ، ورأوا قوى البغي والشرِ والفسادِ والطغيانِ تتآمرُ عليهم ، وتجتمعُ لاستئصالِهِم والقضاءِ عليهم وحّدوا كلمتَهم ، وجمعوا صفوفهم ، وأصبحوا كلمةً واحدةً ، ويداً واحدةً ، وقلباً واحداً . وطبقوا مبدأَ الشورى ، وتراسلوا واستعانوا

---

(1) الآية ٤ من سورة الصف .

(2) رواه الشيخان .

ببعضِهم على عدوِهم ، وذكروا قولَ اللهِ عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكمُ انفِروا في سبيلِ اللهِ اثّاقلتم إلى الأرضِ أرضيتم بالحياةِ الدنيا من الآخرةِ فما متاعُ الحياة الدنيا في الآخرةِ إلا قليلٌ . إلا تنفروا يعذبْكم عذاباً أليماً ويستبدلْ قوماً غيرَكم ولا تضروه شيئاً واللهُ على كل شيءٍ قديرٌ.) [1] .

(انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالِكم وأنفسِكم في سبيلِ اللهِ ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون .) [2] صدق الله العظيم .

ذكروا ذلك ثم قاموا قومةَ رجلٍ واحدٍ بدافع النخوةِ والغيرةِ والشهامةِ الإسلاميةِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ ، ونشر دينِهِ ولو كره الكافرون ، فثبتَ اللهُ قلوبَهم ، وألهمهمُ الثباتَ والصبرَ ، وأنزل عليهمُ النصرَ ، وفتح عليهم ، وخذل عدوَهم ، وكسر شوكتَهُ ، وجعل جنوده يهربون أمامهم متقهقرين ، متفرقين في الأرضِ لا يلوون على شيءٍ وكان أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً . (وردّ

(١) الآيتان ٣٨ ـــ ٣٩ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٤١ من سورة التوبة .

الله الذين كفروا بغيظِهِم لم ينالوا خيراً وكفــــى الله المؤمنــين القتالَ وكان الله قوياً عزيزاً)[1] صدق الله العظيم .

كتابُ ابنِ عبادٍ لولدِهِ
يحملُ بشرى النصرِ

كتب المعتمدُ بنُ عبادٍ إلى ولدِهِ بإشبيليةَ بعد فراغِ المعركــةِ يخبرُه بنـــزولِ نصرِ اللهِ ، وفتحِهِ على عبادِه المؤمنين ، فقـــال فيه:

كتابي هذا من المحلةِ المنصورةِ يومَ الجمعةِ الموفي عشرين من رجب ، وقد أعزَّ اللهُ الدينَ ، ونَصَرَ المسلمين ، وفتح لهمُ الفتحَ المبينَ ، وهزم الكفرةَ والمشركين ، وأذاقهم العذابَ الأليـــمَ ، والخطبَ الجسيمَ ، فالحمدُ للهِ على ما يَسَّرَهُ وسنّاه من هـــذه المسرةِ العظيمةِ ، والنعمةِ الجسيمةِ ، في تشتيتِ شملِ الأذفونـشِ والاحتواءِ على جميعِ عساكرِهِ ، أصلاه اللهُ نكالَ الجحيمِ ، ولا أعدَمَهُ الوبالَ العظيمَ المليم ، وبعد إتيانِ النهبِ على محلاتـــهِ ،

---
[1] الآية ٢٥ من سورة الأحزاب .

واستئصالِ القتلِ في جميعِ أبطالهِ وحُماتِهِ ، حتى اتخذ المسـلمون من هاماتِهم صوامعَ يؤذنون عليها .

فللهِ الحمدُ على جميلِ صنعِهِ ، ولم يُصبْني والحمـدُ للهِ إلا جراحاتٌ يسيرةٌ آلَمَتْ لكنها فُرِجَت بعد ذلك ، فللهِ الحمـدُ والمنةُ ، والسلامُ .

نتائج معركة الزلاقة

هذا ... وقدِ استُشهِدَ في معركةِ الزلاقةِ عددٌ من العلمـاءِ والفضلاءِ وأعيانِ الناسِ ، منهم ابنُ رُقيلـةَ صـاحبُ الرؤيـا المذكورةِ قبل بدءِ المعركةِ ، ومنهم قاضي مراكشَ عبدُ الملـكِ المصموديُّ الملقبُ بأبي مروانَ ، وغيرُهما رحمهم اللهُ جميعاً وغفر لهم ، وأسكنهم فسيحَ جناتِهِ مع الذين أنعم اللهُ عليـهم مـن النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً . في حين مات الأذفونشُ من الأعداءِ غماً وهماً كمـا تقـدم ، وراح إلى أمِهِ الهاويةِ وبئسَ المصيرُ ، ولم يتركْ سوى ابنةٍ واحدةٍ هربَتْ فتحصّنَتْ بطُلَيْطِلَةَ ، وليم يبقَ له عَقِـبٌ ولا نسـلٌ ،

وقطع اللهُ ذِكرَهُ ، ولم يُبقِ له أثراً ولا ذريةً ، وقُطِعَ دابرُ الذين ظلموا والحمدُ لله ربِ العالمين .

أمّا السلطانُ يوسفُ فقد رحل مع ابنِ عبادٍ إلى إشبيليةَ فأقام عنده ثلاثةَ أيامٍ ، ثم وردَتْ إليه الأخبارُ من المغربِ تقتضي ضرورةَ عودتِهِ إلى البلادِ لأمورٍ هامةٍ لا تُحَلُ ولا تعالَجُ إلا بوجودِهِ شخصياً ، فودّعَ ابنَ عبادٍ وانصرف إلى المغرب .

وأمّا المعتمدُ بن عبادٍ الذي رجع مع ضيفِهِ ورفيقِهِ في السلاحِ والجهادِ في سبيلِ الله ، فقد رجع إلى إشبيليةَ مثقَلاً بالجراحِ ، فاجتمع إليه الناسُ يهنئونه من كلِ مكانٍ ، فاستقبلهم وجلس معهم رغم جراحاتِهِ التي تورّمَتْ فآلمتْهُ وأزعجتْهُ ، ولكنه تحامل عليها وجلس يستقبلُ وفودَ المهنئين الذين قدموا إليه من جميعِ أنحاءِ الأندلسِ .

هذا ... وقام الخطباءُ والشعراءُ أمامه ينشدون بين يديه أرقَّ الشعرِ ، وأحلى الكلامِ وأعذَبَهُ ، وجلس قراءُ القرآنِ يتلون كلامَ اللهِ تعالى ، ويدعون له بالنصرِ والظفرِ ، والعزِ

وطولِ العمرِ ليقومَ بنصرِ الدينِ وحمايةِ البلادِ ومقارعةِ الأعداءِ، والقضاءِ على مؤامراتِهِم ، وإحباطِ مخططاتِهِم .

يقـــولُ عبدُ الجليلِ بن وهبونَ وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً فصيحاً:

حضرتُ ذلك اليومَ ، وأعدَدْتُ قصيدةً أُنشدُها بين يديه، فقـــرأ القارئُ : (إلا تنصروه فقد نَصَرَه اللهُ) فقلتُ : بعداً لي ولشـــعـــري ، واللهِ ما أبقَتْ لي هذه الآيةُ معنىً أحضُرُهُ وأقومُ به.[1]

لقـــد كانـــت معركةُ الزلاقةِ مفخرةَ العربِ والمسلمين حيث نصرَهُمُ اللهُ نصراً مؤزراً ، وأذَلَّ عدوَّهم وقهرَهُ ، ودكَّ عروشَ الكافـــرين والمشركين، وقضى على دولتِهِم فلم تقم لهم بعدها قائمةٌ .

ولســـوف تبقى معركةُ الزلاقةِ حيةً في قلوبِ المسلمين ، ومائلـــةً في نفوسِهِم عبر تاريخِهِمُ المجيدِ يفخرون بها ، ويتغنّون بنتائجها ، ويذكرون ذلك اليومَ الأغرَّ الذي نصر اللهُ فيه الحقَ

---

[1] نفح الطيب .

وأهلَهُ ، وهزم الكفرَ وأعوانَهُ ، ودكَّ حصونَ الشركِ ، وأسقط عروشَهم وتيجانَهم ، وقطع دابرَهم والحمدُ لله ربِ العالمين

وإنـــنا لـــنذكرُ معركة الزلاقةِ كلَّ يومٍ بفخرٍ واعتزازٍ ، ونرفعُ رؤوسَـــنا بكل شموخٍ وإباءٍ ، ونفخر بهؤلاءِ الرجالِ العظماء ، والقـــادةِ النجباءِ الذين ضحَوا بكل ما يملكون ، وتنازلوا عن مناصبِهِم ، وتخلَّوا عن مراتبهِم ، وعفّوا عنِ الغنائمِ ، ورفضوا المراتـــبَ والمناصبَ والألقابَ ، واجتمعوا تحت قيادةٍ واحدةٍ ، وانضـــوَوا تحت رايةِ الإسلامِ يقاتلون عدواً مشتركاً استهدف أمـــنَهم ووجودَهـــم ، وديـــنَهم وبلادَهم ، واستغل تفرقهم وخلافـــاتهم ، فجمع جموعه ، وألّبَ أعوانَه ، واستعمل الغدرَ والمكـــرَ والخيانةَ معتقداً أنه سوف يستطيعُ أن يحققَ أحلامَهُ ، فيـــنالَ مـــنهم ، وينتصرَ عليهم منذُ اللحظاتِ الأولى ما داموا متفرقين يتآمرُ بعضُهم على بعضٍ بانبعاثِ روحِ العصبيةِ القبليةِ ووقـــوعِ خـــلافٍ بين العربِ والبربرِ يوشكُ أن يطحنَهـــم ويقضـــيَ عليهم ، ونسيَ أن المسلمَ يتجاوزُ جميعَ الخلافاتِ ،

ويتخطّى جميعَ العقباتِ أمام القضيةِ الكبرى التي همٌّ المسلمين جميعاً ، وتمسُّ دينَهم وتراثَهم وعقيدتَهم .

لقد نسيَ أن المسلمَ يرفضُ الذلَّ ، ويأبى الضيمَ ، ويقاومُ الظلمَ، ولا يرضى بالاستسلام ، ولا يحني جبهتَهُ إلا للهِ ، ذلك أنه عزيزٌ لا يذلُّ، قويٌّ لا يضعُفُ ، شجاعٌ لا يجبنُ ، إنه سرعانَ ما يستيقظُ من سباتِهِ ويصحو من غفلتِهِ ، ويهبُّ مسرعاً لنجدة أخيه المسلمِ ولو كان في أقصى أطرافِ الأرضِ يغيثُهُ وينصرُهُ ، ويدافعُ عنه بكلِ ما أوتيَ من قوةٍ ، ويبذلُ روحَهُ ودمَهُ وكلَّ ما يملكُ دفاعاً عنه لدرءِ الظلمِ وردِ العدوانِ ومقاومةِ البغي والطغيانِ ، ومقارعةِ الشرِ والفسادِ في كلِ زمانٍ ومكان .

لقد كانت معركةُ الزلاقةِ نموذجاً حياً ، ومثالاً صادقاً ، ورمزاً عظيماً لوحدةِ المسلمين والتقاءِ مشاعرِهِم ، واجتماعِ كلمتِهِم ، وتوحيدِ صفوفِهِم تحتَ رايةِ الإسلامِ فاستحقوا من اللهِ النصرَ ، وكانوا أهلاً للفتحِ والظفرِ ، وهذا وعدٌ ثابتٌ من اللهِ تعالى لا يتخلّفُ ، ولن يتخلّفَ إلى يومِ القيامةِ إذا توفرَتْ

في المسلمين عوامل النصر ، وأسباب التأييد والظفر كما توفرت فيهم يوم معركة الزلاقة الخالدة ، قال الله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) [1] . فنصر الله تعالى ليس مقصوراً على الرسل فحسب بل هو عامٌ في المؤمنين المستوفين أسباب النصر ، مصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون) [2] صدق الله العظيم .

معركة رُوطة

وهي قلعةٌ منيعةٌ بالأندلس ، قال المقري : هي قلعةٌ منيعةٌ من عاصمات الذرا ، وماؤها ينبعُ من أعلاها ، وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمانُ .

---

[1] الآية ٥١ من سورة غافر .

[2] الآيات ١٧١ ــ ١٧٣ من سورة الصافات .

لقد كانت معركةُ قلعةِ روطةَ جزءاً من معركةِ الزلاقـــةِ ، ومتممةً لها . ذلك أن السلطانَ يوسفَ بنَ تاشفينَ حين عـــزم العودةَ إلى المغربِ إثرَ أنباءٍ وردَتْ إليه وهو بإشبيليةَ في ضيافـــةِ المعتمدِ بنِ عباد كما تقدم، تعلمُهُ بضرورةِ عودتِهِ إلى المغـــربِ لأمورٍ هامةٍ لا تُحَلُّ إلا بوجودِهِ شخصياً ، فودَّعَ ابـــنَ عبـــادٍ وانصرف إلى المغربِ واستخلف الأميرَ سيرَ بنَ أبي بكرٍ نائبـــاً عنه في الأندلسِ وكان من قوادِهِ المقربين وفرسانهِ المشهورين ، وكان موضعَ ثقتِهِ وأمانتِهِ ، وترك معه جيشاً كبيرا يعتمدُ عليـه في القتالِ إذا ما حصل قتالٌ ، أو تمردٌ من الفرنجةِ .

ولم يكدِ الأميرُ سيرُ بنُ أبي بكر يستقرُ أياماً حتى دخـــل بلادَ الأذفونشِ ، وبثَّ جنودَهُ في أطرافِها ونواحيها ، ومضـــى يتوغلُ في البلادِ يفتحُ الحصونَ المنيعةَ ، ويدكُّ المعاقلَ الصعبـــةَ الحصينةَ ، ويطلقُ الإغاراتِ السريعةَ والشجاعةَ ، فجمع مغـــانمَ كثيرةً ، وأموالاً وفيرةً ، وذخائرَ وأسلحةً عظيمةً ، ثم أرسل بها إلى السلطانِ يوسفَ ، وكتب له يعلمُهُ أنَّ الجيـــوشَ بـــالثغورِ مقيمةٌ ، وعلى الحدودِ متحفزةٌ ترقبُ تحركاتِ العدوِ ، وترصدُ

أماكنَهُ ومواقعَهُ وأنها مستعدةٌ لخوضِ الحربِ ومتابعةِ القتالِ في أضيقِ العيشِ وأنكدِهِ ، بينما ملوكُ الأندلسِ في قصورِهم وبين أهلِهم في أرغدِ العيشِ وأطيبِهِ .

فكتب إليه السلطانُ يوسف أَنْ يأمرَهم بالانتقالِ والرحيلِ إلى أرضِ العُدوةِ [1] ، فَمنْ فعل فذاكَ ، ومَنْ أبى فحاصِرْهُ وقاتله ، ولا تنفسْ عليه ، ولتبدأْ بِمَنْ والى الثغورَ ، ولا تتعرضْ للمعتمدِ بنِ عبادٍ إلاّ بعد استيلائكَ على البلادِ ، وكلُّ بلدٍ أخذتَهُ فولِّ فيه أميراً من عساكركَ ... والسلام .

فبدأ سيرُ بنُ أبي بكرٍ بتنفيذِ أمرِ السلطانِ ، فأولُ مَنِ ابتدأ بهم من ملوكِ الأندلسِ بنو هودٍ ، وكانوا بقلعةِ روطةَ المذكورةِ، فحاصرها فاعتصم بها بنو هود ، فلم يستطعْ الأميرُ سيرُ أن يفتَحها فرحل عنها ، ثم جنَّدَ أجناداً وجعلهم على هيئةِ الفرنجةِ باللباسِ والسلاحِ والزيِّ ، وأمرهم أن يُغيروا عليها ويقتحموها، وكَمَنَ هو ومعه عددٌ من الفرسانِ قريباً منها ، فلما رآهم أهلُ القلعةِ استهانوا بهم ، واستضعفوهم ، واعتقدوا

---

[1] أرض العدوة ، أو بر العدوة ، وهي منطقة جبلية صعبة .

أنهم من الفرنجةِ ، فنــزلوا إليهم وجعلوا يقـــاتلونهم ومعـــهم قائدهم صاحبُ القلعةِ ، فخرج عليه الأميرُ سيرُ بنُ أبي بكـــرٍ ، فنازله لحظاتٍ ثم تمكنَ من القبض عليه فأخذه أسيراً ، فـــألقى أهلُ القلعةِ أسلحتَهم واستسلموا وتسلّمَ الأميرُ سيرٌ الحصنَ .

ثم قصدَ بني طاهرٍ وكانوا بشرقِ الأندلــــسِ ، فصـــالحوه وأسلموا له البلادَ ، وانقادوا لأميرِ السلطانِ يوسفَ ، ولحقـــوا ببرِ العُدوةِ .

ثم قصد بني صُمادِحَ بالمريةِ ، ولها قلعةٌ حصينةٌ ، فحاصرها وضيَّقَ عليهم ، فلما أدرك ابنُ صُمادحَ أنه مغلوبٌ لا محالـــــةَ حزن لذلك حزناً شديداً ، ومات هماً وغبناً ، فأخذ الأميرُ سـيرٌ القلعةَ ، واستولى على المريةِ ، وجميعِ أعمالِها .

ثم قصد بَطَلْيوسَ ، وكان بها المتوكلُ عمرُ بن محمدِ بــــنِ الأفطسِ، فحاصَرَهُ ، وأخذه أسيراً بعد أنِ استولى على جميـــعِ أعمالِهِ وأموالِهِ .

هذا ... ولم يبقَ أمامَ الأميرِ سيرٍ من ملوكِ الأندلــــسِ إلا المعتمدُ بنُ عبادٍ الذي أوصاه به السلطانُ يوسفُ خيراً ، وأمَــرَهُ

أن لا يتعرضَ له إلا بعد أن يستوليَ على جميع بلادِ الأندلسِ ، وها هو ذا قد فعل ما أُمِرَ به ، وأنجَزَ مهمتَهُ على أتمِ وجهٍ وأكملِهِ ، فما هو فاعلٌ الآن بابنِ عباد...؟

إنه لا يستطيعُ أن يفعلَ شيئاً قبل أن يستشيرَ سيدَهُ السلطانَ يوسفَ بنَ تاشفينَ ، فكتب إليه يخبرُهُ بما فعل ، ويسألُهُ ما هو فاعلٌ بابنِ عبادٍ إذ لم يبقَ من ملوكِ الأندلسِ غيرُهُ ، وجميعُهم استسلموا وانتقلوا من قصورِهم إلى برِّ العُدوةِ.

بين المعتمدِ بنِ عبادٍ ويوسفَ بنِ تاشفينَ

قبل ذكرِ جوابِ السلطانِ يوسفَ لنائبهِ سيرِ بنِ أبي بكرٍ حول مصيرِ ابنِ عبادٍ لا بدَّ من الرجوعِ قليلاً إلى يومِ نزولِ ابنِ تاشَفينَ ضيفاً على ابنِ عبادٍ بعد فراغِهِما من معركةِ الزلاقةِ ليكونَ الربطُ بين الحادثتين مناسباً .

قال المقري في نفحِ الطيبِ : فلما انتهى ابنُ تاشفينَ إلى إشبيليةَ مدينةِ المعتمِدِ ، وهي من أحسنِ المدنِ وأجلِّها منظراً ، أمعن يوسفُ النظرَ فيها وفي محلِها ، وهي على نهرٍ عظيمٍ

مستبحرٍ تجري فيه السفنُ بالبضائعِ جالبةً من برٍّ المغرب وحاملةً إليه .

وفي غربِها رستاقٌ [1] عظيم مسـيرةَ عشـرين فرسـخاً يشتملُ على آلافٍ من الضياعِ كُلُّها تينٌ وعنـبٌ وزيتـونٌ ، وهذا هو المسمّى بشرفِ إشبيليةَ ، وتمتازُ بلادُ المغربِ كُلّـها بهذه الأصنافِ منه .

وفي جانبِ المدينةِ قصورُ المعتمِدِ وأبيه المعتضِدِ في غايةِ الحسنِ والبهاءِ .

وفيها أنواعُ ما يحتاجُ إليه مـن المطعـومِ والمشـروبِ والملبوسِ والمفروشِ وغير ذلك ، فأنزل المعتمدُ يوسـفَ بـنَ تاشَفينَ في أحدِها ، وتولّى من إكرامِهِ وخدمتِهِ ما أوسعَ شـكرَ ابنِ تاشفين له .

وكان مع ابنِ تاشَفينَ أصحابٌ له ينبهونه إلى حسنِ تلك المحالّ وتأمُّلِها . وما هي عليه من النعمةِ والإترافِ ، ويغرونـه باتخاذِ مثِلها ، ويقولون له : إن فائدةَ الملكِ قطعُ العيـشِ فيـه

---

[1] الرستاق : هو الناحية التي هي طرف الإقليم ، والجمع رساتيق .

بالتـــنعمِ واللذةِ كما هو المعتمدُ وأصحابُهُ ، وكان ابنُ تاشَفينَ عاقلاً مقتصداً في أمورِهِ ، غيرَ متطاولٍ ولا مبذرٍ ، غيرَ سالكٍ نهجَ الترفِ والتأنقِ في اللذةِ والنعيمِ ، إذ ذهب صدرُ عمرِهِ في بـــلادِهِ بالصـــحراءِ في شظفِ العيشِ ، فأنكر على مَنْ أغراه بذلك الإسرافِ وقال له : الذي يلوحُ لي من أمرِ هذا الرجلِ – يعـــني المعـــتمدَ – أنـــه مضيّعٌ لما في يدِهِ من الملكِ ، لأن هذه الأموالَ الكثيرةَ التي تُصرَفُ في هذه الأحوالِ لا بُدَّ أن يكونَ لها أربـــابٌ لا يمكنُ أخذُ هذا القدرِ منهم على وجهِ العدلِ أبداً ، فأخذُهُ بالظلمِ ، وإخراجُهُ بهذه الطريقةِ أفحش استهتارٍ ، ومَنْ كانـــت همـــتُهُ في هذا الحدِ من التصرفِ فيما لا يعدو طعامَهُ وشـــرابَهُ ،مـــتى تستنجد همته في ضبط بلاده وحفظها وصون رعيته والتوفر لمصالحها؟ ولعمري لقد صدق.

ثم إن ابنَ تاشفينَ سأل عن أحوالِ المعتمدِ في لذاتِهِ : هل تختلفُ فتنقصَ عمّا عليه في بعضِ الأوقاتِ ...؟

فقيل له : بل كلُ زمانِهِ على هذا .

فقال : أفكلٌّ أصحابِهِ وأنصارِهِ على عدوِّهِ ومنجديه على الملكِ ينالُ حظاً من ذلك ...؟

فقالوا : لا .

قال : فكيف ترون رضاهم عنه ...؟

فقالوا : لا رضى لهم عنه .

فأطرق وسكت ، وأقام عند المعتمِدِ على تلـك الحـالِ أياماً. [1]

وبذلك يكونُ ابنُ تاشفينَ قد كوَّنَ فكرةً عامةً عن المعتمِـدِ بنِ عبادٍ وأحوالِهِ وتصرفاتِهِ بأمورِ الدولةِ ، ولهوِهِ وعبثِهِ وبذخِـهِ وإسرافِهِ الأموالَ على اللهوِ والعبثِ ، شأنُهُ في ذلك كشـأنِ جميعِ ملوكِ الأندلسِ، من أجل هذا أمَرَهم أن يتحولوا من حياةِ اللهوِ والترفِ في القصورِ إلى حياةِ الاقتصـادِ والخشـونةِ ، لا سيما وأنهم يعيشون حالةَ حربٍ دائمةٍ مع الإفرنجِ ، وهـي لا تناسبُ حياةَ اللهوِ والترفِ ، لذلك أمَرَهم أن يتحولوا إلى بـرِّ العُدوةِ ليعتادوا حياةَ القسوةِ والخشونةِ فيكونوا أكثرَ اسـتعداداً وأشدَّ تلاؤماً مع ظروفِ الحربِ .

---

[1] نفح الطيب .

هذا ... ولم يكتفِ السلطانُ يوسفُ بما سمعه عن حياةِ ابنِ عـــبادٍ وانغماســـهِ في الشهواتِ ، فجمع أعوانَهُ ومستشاريه ، وأهلَ العلمِ والفقهِ ، وأخَذَ آراءَهم واستفتاهم ما هو فاعلٌ بابنِ عبادٍ ...؟

فجعل بعضُهم يعظّمون عنده بلادَ الأندلسِ ، ويحثونه على قتالهِ، وأخذِها منه ، ويوغرون صدرَهُ عليه بأمورٍ نقلوها عنه ، وحسدوهُ عليها .

وحكى ابنُ خلدونَ أن علماءَ الأندلسِ أفتَوه بجوازِ خلعِ المعتمدِ وغيرِهِ من ملوكِ الطوائفِ ، وبقتالِهِم إنِ امتنعوا .

فجهز يوسفُ العساكرَ إلى الأندلسِ ، وحاصرَ سيرُ بنُ أبي بكرٍ أحدُ عظماءِ دولةِ يوسفَ إشبيليةَ وبها المعتمدُ ، فكان من دفاعهِ وشدةِ ثباتهِ ما هو معلومٌ ، ثم أُخِذَ أسيراً ، وصار طرفُ الملكِ بعده حسيراً .

وفي وصـــفِ ذلـــك يقولُ صاحبُ القلائدِ : ثم جُمِعَ هو وأهلُهُ وحَمَلَتْهُمُ الجواري المنشآتُ ، وضمتْهُم جوانحُها كأنهم أمـــواتٌ ، بعدمـــا ضاق عنهمُ القصرُ ، وراق منهمُ المِصْرُ ،

والناسُ قد حُشِروا بضفَّتَي الوادي ، يبكون بدموعٍ كالغوادي،
فساروا والنوحُ يحدوهم ، والبوحُ باللوعةِ لا يعدوهم .
انتهى ملخّصاً من نفحِ الطيبِ .

الحُسّادُ يوقعون بين ابنِ عبادٍ وابنِ تاشفينَ

وفي فترةِ إقامةِ السّلطانِ ابنِ تاشَفينَ في قصرِ ابنِ عبادٍ ، استأذنَ رجلٌ على المعتمدِ ، وكان ذا هيئةٍ رثّةٍ ولكن تبدو عليه علاماتُ الفطنةِ والذكاءِ . فلما دخلَ عليه ومثلَ بين يديه قال : أصلحكَ اللهُ أيُّها السلطانُ ، وإن من أوجبِ الواجباتِ شكرَ النعمةِ ، وإنّ مِنْ شكرِ النعمةِ إهداءَ النصائحِ ، وإني رجلٌ من رعيتِكَ حالي في دولتِكَ إلى الاختلالِ ، أقربُ منها إلى الاعتدالِ ، ولكنني مع ذلكَ مستوجبٌ لك من النصيحةِ ما للملِكِ على رعيتِهِ ، فمن ذلك خبرٌ وقعَ في أذني من بعضِ أصحابِ ضيفِكَ هذا يوسفَ بنِ تاشَفينَ يدلُّ على أنهم يرونَ أنفسَهم وملِكَهم أحقَّ بهذه النعمةِ منكَ ، وقد رأيتُ رأياً فإن آثرتَ الإصغاءَ إليه قلتُهُ .

فقال له المعتمدُ : قُلْهُ .

فقال له : رأيتُ أنّ هذا الرجلَ الذي أطلعتَهُ على ملكِكَ مستأسِدٌ على الملوكِ قد حطّم على زناتةَ ببرِ العُدوة ، فأخذ الملكَ من أيديهم ، ولم يُبْقِ على واحدٍ منهم ، ولا يُؤمَنُ أن يطمحَ إلى الطمعِ في ملكِكَ ، بل في ملكِ جزيرةِ الأندلس كلّها، لما قد عاينَه من هناءةِ عيشِكَ ، وإنه لمتحيّلٌ في مثلِ ذلك لسائرِ ملوكِ الأندلسِ ، وإن له من الولدِ والأقاربِ وغيرِهم مَنْ يودُّ له الحلولَ بما أنتَ فيه من خصْبِ الجنابِ ، وقد أرْدى الأذفونشَ وجيشَهُ ، واستأصل شأفتَهم ، وأعدمَكَ منه أقوى ناصرٍ عليه لوِ احتجتَ إليه ، فقد كان لكَ منه أقوى عَضُدٍ وأوفى مِجَنٍّ ، وبعدُ فإنّه إنْ فات الأمرُ في الأذفونشِ فلا يَفُتْكَ الحزمُ بما هو مُمكنٌ اليومَ .

فقال له المعتمدُ : وما هو الحزمُ اليومَ ...؟

فقال : أن تجمعَ أمرَكَ على قبضِ ضيْفِكَ هذا ، واعتقالِهِ في قصرِكَ ، وتجزمُ أنّك لا تُطلقُهُ حتى يأمرَ كلَّ مَنْ بجزيرةِ الأندلسِ من عسكرِهِ أن يرجعَ من حيثُ جاءَ ، حتى لا يبقى

منهم أحدٌ بالجزيرةِ طفلٌ فمَنْ فوقَهُ ، ثم تتفقُ أنـــتَ وملـوك الجزيرةِ على حراسةِ هذا البحرِ من سفينةٍ تجري فيه له ثم بعـــد ذلك تستحلفُهُ بأغلظِ الأيمانِ ألا يضمرَ في نفسهِ عَوْداً إلى هــذه الجزيرةِ إلا باتفاقٍ منكم ومنه ، وتأخذَ منه على ذلك رهـــائنَ فإنه يعطيكَ من ذلك ما تشاءُ ، فنفسُهُ أعزُّ عليهِ من جميعِ مـــا يُلْتَمَسُ منه ، فعند ذلك يقتنعُ هذا الرجلُ ببلادهِ التي لا تصلـحُ إلا له ، وتكونُ قدِ استرحْتَ منـــه بعدمـــا اســـترحْتَ مـــن الأذفونشِ، وتقيمُ في موضِعِكَ على خير حال ، ويرتفعُ ذكـركَ عند ملوكِ الجزيرةِ ، ويتسعُ ملكُكَ ، ويُنسَبُ هذا الاتفاقُ لـك إلى سعادةٍ وحزمٍ وتهابُكَ الملوكُ ، ثم اعملْ بعد هذا ما يقتضيـه حزمُكَ في مجاورةِ مَنْ عاملتَهُ هذه المعاملةَ ، واعلمْ أنه قد تهيّـــأَ لك من هذا أمرٌ سماويٌّ تتفانى الأممُ ، وتجري بحارُ الـــدمِ دون حصولِ مثلِهِ .

فلما سمع المعتمدُ كلامَ الرجلِ استصوبَهُ ، وجعل يفكـرُ في انتهازِ الفرصةِ المناسبةِ لتنفيذِ رغبةِ ذلك الرجلِ .

وكان للمعتمدِ ندماءُ قدِ انهمكوا معه في اللذات ، فقال أحدُهم لهذا الرجلِ الناصِحِ : ما كان المعتمدُ على اللهِ ــ وهو إمامُ أهل المكرماتِ ــ ممنْ يعاملُ بالحيفِ ، ويغدُرُ بالضيفِ .

فقال الرجلُ : إنما الغدرُ أخذُ الحقِ من يدِ صاحبِهِ ، لا دفعُ الرجلِ عن نفسهِ المحذورَ إذا ضاق به .

فقال ذلك النديمُ : ضيمٌ مع وفاءٍ خيرٌ من حزمٍ مع جفاءٍ .

ثم إن ذلك الناصحَ استدركَ الأمرَ وتلافاه ، فشكر له المعتمدُ ووصَلَهُ بصلةٍ ، واتصل هذا الخبرُ بيوسفَ فأصبح غادياً ، فقدَّمَ له المعتمدُ الهدايا السنيّةَ ، والتحفَ الفاخرةَ ، فقبلها ثم رحل.[1]

أسرُ المعتمدِ بنِ عبادٍ

ذكرتُ في الصفحات السابقةِ كيف أُسِرَ المعتمدُ بن عبادٍ نقلاً عن كتابِ نفح الطيب الذي نقل عنِ ابنِ خلدون ، وقد رأيتُ في كتابِ وفياتِ الأعيانِ روايةً مختلفةً عن تلك الروايةِ ، فأردتُ أن أذكرَها هنا لما فيها من زيادةِ تفصيلٍ ، وللربطِ بينها

---

(1) نفح الطيب .

وبـــين رحـــيلِ السلطانِ ابنِ تاشَفينَ من عندِ ابنِ عبادٍ محملاً بالهدايا السنيةِ ، والتحفِ الفاخرةِ .

قال ابنُ خَلّكانُ : ثم إن الأميرَ يوسفَ عاد إلى الأندلسِ في العـــامِ الـــثاني وخرج إليه المعتمدُ ، فحاصرا بعضَ حصونِ الفـــرنجِ ، فـــلم يقدرا عليه ، فرحلا عنه ، وعبر يوسفُ على غـــرناطةَ ، فخرج إليه صاحبُها عبدُ اللهِ بنَ بُلُكّين . فغدر به يوســـفُ ودخلَ البلدَ ، فأخرج عبدَ اللهِ ودخل قصرَهُ ، فوجد فيه من الأموالِ والذخائرِ ما لا يُحَدُّ ولا يُحصى، ثم رجع إلى مـــراكشَ وقد أعجَبَهُ حسنُ بلادِ الأندلسِ وبهجتُها ، وما فيها مـــن المباني والبساتينِ والمطاعمِ وسائرِ أصنافِ الأموالِ التي لا توجَدُ في مراكش ، فإنها بلادُ بربرٍ وأجلافِ العربانِ ، وجعل خواصُّ الأميرِ يوسفَ يعظمون عنده بلادَ الأندلسِ ، ويحسنون له أخذَها ، ويغرون قلبَه على المعتمدِ بأشياءَ نقلوها عنه ، فتغيَّرَ علـــيه وقَصَدَهُ ، فلما انتهى إلى سبـــتةَ [1] جهز إليه العساكرَ

---

[1] سبتة : بلاد مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس . انظر معجم البلدان

وقدَّمَ عليها سيرَ بنَ أبي بكرٍ الأندلسيَّ، فوصل إلى إشبيليةَ وبهـا المعتمدُ فحاصَرَهُ أشدَّ محاصرةٍ ، وظهر من مصـابرةِ المعتمِـدِ وشدةِ بأسه وترامِيه على الموتِ بنفسهِ مـا لم يسـمعْ بمثلِـهِ، والناسُ بالبلدِ قد استولى عليهمُ الفزعُ ، وخامَرَهُمُ الجـزعُ ، يقطعون سُبُلَها سياحةً ، ويخوضون نهرَها سباحةً ، ويـترامون من شرفاتِ الأسوارِ ، فلما كان يومُ الأحدِ ، العشرون مـن رجب سنةَ أربعٍ وثمانين وأربعمِئةٍ هجم عسكرُ الأميرِ يوسـفَ البلدَ وشنّوا فيه الغاراتِ ولم يتركوا لأحدٍ شيئاً ، وخرج الناسُ من منازلِهم يسترون عوراتِهم بأيديهم ، وقُبض على المعتمِـدِ وأهلِهِ ، وكان قد قُتِل له ولدان قبل ذلك ، أحدُهما ، المأمونُ ، وكان ينوبُ عن والدِهِ في قرطبةَ فحصروهُ بها إلى أن أخـذوهُ وقتلوهُ . والثاني الراضي ، وكان أيضاً نائباً عن أبيه في رُنـده ، وهي من الحصونِ المنيعةِ ، فنـزلوها وأخذوها وقتلوا الراضي ، ولأبيهما المعتمِدِ فيهما مراثٍ كثيرةٌ .

ولّما أُخِذَ المعتمدُ قيدوه من ساعتِهِ ، وجُعِلَ مع أهلِـــهِ في سفينةٍ ، وحملتهم الجواري المنشآتُ ، وضمتهم كأنهم أمـــواتٌ ... الخ كما في روايةِ ابن خلدونَ المتقدمةِ .

وقد رويَ أن الأميرَ يوسفَ بنَ تاشَفينَ أمرَ بإرسالِ ابـــن عبادٍ إلى مدينةِ أغمات [1] فسُجِنَ بها ، ولم يخرجْ منـــها إلى أنْ ماتَ .

حزنُ الشعراءِ على أسرِ المعتمدِ بنِ عبادٍ

لقد حزنَ الناسُ على أسرِ ابنِ عباد حزناً شديداً ، وقـــال فيه الشعراءُ كلاماً عذباً رقيقاً يبثون فيه أحزانَهم ، ويذكـــرون تحسُّرَهم وآلامَهم على فراقِهِ منهم أبو بكرٍ محمدُ بـــنُ عيســـى الوافي المعروفُ بابنِ اللبانةِ :

---

[1] أغمات : بليدة وراء مراكش بينهما مسافة يوم بسير الأقدام ، وقد خرج منها جماعة من العلماء المشاهير

تبكي السماءُ بدمعٍ رائحٍ غادي على البهـــاليلِ من أبناءِ عبّادِ [1]

ومن جملتها :

يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المكرماتِ فخُذْ في ضمِّ رحلِكَ واجمعْ فضلةَ الزادِ

وهي قصيدةٌ طويلةٌ لم يُذْكَرْ منها غيرُ هذين البيتين كما قال المقري . [2]

ومنهم أبو محمد عبدُ الجبار بنُ حمديسَ الصقليُّ :

ولّما رحلتم بـــالندى في أكفِكـــم وقُلْقِلَ رضوى منكم وثبيرُ [3]

رفعتُ لساني بالقيامةِ قـــد دنَـــتْ فهذي الجبالُ الراسياتُ تسيرُ

وقال أبو بكرٍ الداني أيضاً :

لكل شيءٍ من الأشيـــاء ميقـــاتُ وللمـــنى مـــن منايـــاهُنَّ غايـــاتُ

والدهرُ في صبغةِ الحرباءِ منغمـــسٌ ألوانُ حالاتِهِ فيهـــا استحـــالاتُ

ونحنُ من لُعَبِ الشطرنجِ في يـــدِهِ وربمـــا قُمِـــرَت بـــالبيدقِ الشـــاةُ

---

[1] البهاليل : جمع بُهلول ، وهو الرجل الكريم ، ويقال : امرأة بُهلول ، والبُـــهلول : العزيـــز الجامع لكل خير .

[2] نفح الطيب

[3] رضوى : جبل بالمدينة ، وثبير : جبل من جبال مكة .

نفض يديكَ من الدنيا وساكنِها فالأرضُ قد أقفَرَتْ والناسُ قد ماتوا
قل لِعالَمِها الأرضيّ قد كَتَمَتْ سريرةَ العالَمِ العلوي أغماتُ

وقال فيه أيضاً :

تنشَّقْ رياحينَ السلامِ فإنما أفضُّ بها مسكاً عليكَ مُخَتَّما
وقُلْ لي مجازاً إنْ عدمْتَ حقيقةً لعلَّكَ في نُعمى وقد كنتَ مُنَعَما
أفكرُ في عصرٍ مضى لكَ مشرقاً فيرجعُ ضوءُ الصبحِ عندي مظلما
وأعجبُ من أُفقِ المجرّةِ إذ رأى كسوفَكَ شمساً كيف أطلَعَ أنجما
لئنْ عَظُمَت فيكَ الرزيةُ [1] إننا وجدناكَ منها في الرزية أعظما

ودخلَتْ عليه يوماً بناتُهُ السجنَ ، وكان يومَ عيدٍ ، وكُنَّ يغزِلْنَ للناسِ بالأجرةِ في أغماتَ ، حتى إن إحداهنَّ غزلَتْ لبيتِ صاحبِ الشرطةِ الذي كان في خدمةِ أبيها وهو في عزِّه وسلطانِه ، فرآهنَّ في أطمارٍ [2] رَثَّةٍ ، وحالةٍ سيئةٍ ، فصَدَعْنَ قلبَهُ ، فأنشد قائلاً :

---

[1] الرزية : المصيبة ، والجمع رزايا .

[2] الأطمار : جمع طمر ، وهو الثوب الخلق .

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسروراً ... فساءك العيدُ في أغمات مأسوراً
نرى بناتِكَ في الأطمار جائعةً ... يغزلْنَ للناس لا يملِكْن قطميرا
برزْنَ نحوكَ للتسليم خاشعةً ... أبصارُهُنَّ حسيرات مكاسيرا
يطأْنَ في الطين والأقدامُ حافيةٌ ... كأنها لم تطأْ مسكاً وكافورا

ومنها أيضاً :

لا خَدَّ إلا ويشكو الجدبَ ظاهرُهُ ... وليس إلا مع الأنفاسِ ممطورا
قد كان دهرُكَ إنْ تأمرْهُ ممتثلاً ... فردَّك الدهرُ منهياً ومأمورا
مَنْ باتَ بعدَكَ في ملكٍ يُسرُّ به ... فإنما باتَ بالأحلام مغرورا

ودخل عليه ولدُهُ أبو هاشم وهو في حالةٍ سيئةٍ ، والقيودُ قد عَضَّتْ على ساقيه فأدمتهما وتركتْ فيهما جرحاً بليغاً ، فلما رأى وَلَدَهُ بكى وقال :

قيدي أما تعلمُني مسلّماً ... أبيتَ أن تُشفقَ أو ترحما
دمي شرابٌ لك واللحمُ قد ... أكلْتَهُ لا تهشم الأعظُما

بصُـرُني فيـكَ أبـو هاشـم فينشـني والقلـبُ قـد هُشِّما

رحـمْ طُفَيـلاً طائشـاً لُبُّـهُ لم يخْـشَ أن يـأتيك مسـترحِمًا

ارحـمْ أُخَيـاتٍ لـه مثلَـهُ جرعتَـهُنَّ السُـمَّ والعلقمـا

نهنَّ مَـنْ يفـهمُ شـيئاً فقـد خفنـا عليـه للبكـاءِ العمـى

الغـيرُ لا يفـهمُ شـيئاً فمـا يفتـحُ إلا لرضّـاعٍ فمـا

ويروى أنه اجتمع عنده جماعةٌ من الذين كـان يحسـنُ ليهم، فتأثَّر على نفسِهِ وخجل منهم ، فأنشد قائلاً :

سألوا اليسيرَ من الأسـيرِ وإنـه بسؤالِهم لأحَقُّ منـهم فـاعجبِ

ـولا الحيـاءُ وعـزةٌ لخميّـةٌ طيُّ الحشا لحكـاهُمُ في المطلـبِ

ترجمةُ ابنِ عبادٍ

هو المعتمدُ على الله أبو القاسمِ محمدُ بنُ المعتضِدِ أبو عمروٍ باد بنِ القاضي أبي القاسمِ بنِ عبادٍ ، ملكٌ مجيـدٌ ، وأديـبٌ شاعرٌ وفارسٌ ذو نجدةٍ وشهامةٍ وكرمٍ وجودٍ فريدٍ .

قال عنه ابنُ القطاع : إنه أندى ملوكِ الأندلسِ راحــةً ، وأرحبُهم ساحةً ، وأعظمُهم ثِماداً [1] ، وأرفعُـــهم عمــاداً ، ولذلك كانت حضرتُهُ ملقى الرجالِ ، وموسمَ الشعراءِ ، وقبلةَ الآمالِ ، ومألفَ الفضلاءِ ، حتى إنه لم يجتمعْ بباب أحدٍ مـــن الملوكِ من أعيانِ الشعراءِ ، وأفاضلِ الأدباءِ ، ما كان يجتمـــعُ ببابهِ .

وقال ابنُ بسامٍ في الذخيرةِ : للمعتمدِ شعرٌ ، كما انشـــقَّ الكِمامُ عن الزهرِ ، لو صار مِمَّنْ جعل الشعرَ صناعةً ، واتخـذَهُ بضاعةً ، لكان رائقاً معجباً ، ونادراً مستغرَباً ، فمـــن ذلـــك قولُهُ:

أكثرتَ هجرَكَ غيرَ أنكَ ربمـــا ... عطفتـــكَ أحيانـــاً علـــيَّ أمـــورُ

فكأنما زمــــنُ التــهاجرِ بيننـــا ... ليلٌ وساعاتُ الوصـــالِ بـــدورُ [2]

---

[1] الثماد : هو المكان الذي يجتمع فيه الماء .

[2] نفح الطيب .

وعزم على إرسال بعضِ نسائِهِ من قرطبةَ إلى إشـــبيليةَ ، فخرج معهنَّ يُشيعُهُنَّ ، فسار معهُنَّ من أولِ الليلِ إلى الصبحِ ، فودعهنَّ ورجعَ ، وفي طريقِ عودتِهِ أنشد أبياتاً رقيقـــةً منـــها هذان البيتان :

سايرتُهُنَّ والليــلُ عَقَــدَ ثوبَــهُ حــتى تبــدّى للنواظــرِ معلمــا
فوقفتُ ثم مودّعــاً وتســلّمَتْ مني يدُ الإصبــاحِ تلــك الأنجمــا

وفي المعتمِدِ وأبيه المعتضِدِ قال بعضُهم :

من بني منــذرٍ وذاكَ انتســابُ زاد في فخرهِــم بنـــو عبّــادِ
فتيــةٌ لم تلِــدْ ســواها المعــالي والمعـــالي قليلــــةُ الأولادِ

كانت ولادةُ ابنِ عبادٍ في شهرِ ربيعِ الأولِ سنةَ إحـــدى وثلاثين وأربعِمِئةٍ بمدينةِ باجة من بلادِ الأندلسِ وتسلّم مقـــاليدَ الحكمِ بعد وفاةِ أبيه .

وتوفيَ في السجنِ بأغماتَ لإحدى عشرة ليلةً خَلَتْ مـــن شوال .

وقيل : في ذي الحجةِ سنةَ ثمانٍ وثمانين وأربعِمِئةٍ .

قال ابنُ خلّكان : ومن النادرِ الغريبِ أنه نوديَ في جنازتِهِ بالصلاةِ على الغريبِ ، بعد عظمِ سلطانِهِ ، وجلالِ شــأنهِ ، فتبارك من له البقاءُ والعزةُ والكبرياءُ .

واجتمع عند قبرِه جماعةٌ من الشعراءِ الذين كانوا يقصدونه بالمدائحِ ، ويجزِلُ لهمُ المنائحَ ، فرثَــوه بقصــائدَ مطــوّلاتٍ ، وأنشدوها عند قبرِهِ ، وبكوا عليه دمعاً شجياً .

فمنهم أبو بحرٍ عبدُ الصمدِ شاعرُه المختصُّ بــه ، رثــاه بقصيدةٍ طويلةٍ أجاد فيها ، وأولُها :

مِلكَ الملوكِ أســامعٌ فأنــادي	أم قدْ عَدَتْكَ عن السماعِ عَــوادي
لما لُقِلْتَ عنِ القصورِ ولم تكــنْ	فيها كما قــد كنــتَ في الأعيــادِ
أقبلتُ في هذا الثرى لكَ خاضعاً	وجعلتُ قــبرَكَ موضــعَ الإنشــادِ

ولما فرغَ من إنشادها قبَّلَ الثرى ، ومرَّغَ جسمَهُ ، وعفَّرَ خدَّهُ ، فأبكى كلَّ من حَضَرَ .

ويُروى أن رجلاً رأى في منامِهِ كأنَّ رجلاً صعِدَ منــبرَ جامعِ قرطبةَ ، واستقبلَ الناسَ ثم أنشدَ :

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا عِيسَهُمْ ... في ذرا مجدِهِمُ حين بَسَقْ

سكتَ الدهرُ زماناً عنهمُ ... ثم أبكاهم دماً حين نطقْ

ورأى الشاعرُ أبو بكر الداني واحداً من أحفادِ المعتمدِ بنِ عبادٍ وهو غلامٌ وسيمٌ قد اتخذَ الصياغةَ صناعةً ، وكان يلقّبُ في أيامِ جدهِ المعتمدِ فخرَ الدولةِ ، فنظر إليه وهو ينفُخُ الفحمَ بقصبةِ الصائغِ ، فقال من جملةِ قصيدةٍ :

شكاتُنا فيكَ يا فخرَ العُلا عَظُمَتْ ... والرُّزْءُ [1] يعظمُ فيمَنْ قدرُهُ عظُما

طُوِّقْتَ من نائباتِ الدهرِ مخنقةً ... ضاقَتْ عليك وكم طوقتنا نعما

وعاد طوقُكَ في دكانِ قارعةٍ ... من بعد ما كنتَ في قصرٍ حكى إرما

صرِّفْتَ في آلةِ الصوّاغِ أنملةً ... لم تدرِ إلا الندى والسيفَ والقلما

يدٌ عهدتك للتقبيلِ تبسطها ... فتستقلُّ الثريا أن تكونَ فما

يا صائغاً كانتِ العليا تُصاغُ لهُ ... حُلياً وكان عليه الحليُ منتظِما

للنفخِ في الصورِ هولٌ ما حكاه سوى ... أني رأيتُك فيه تنفخُ الفحما

---

[1] الرزء : المصيبة .

وددْتُ إذ نظرَتْ عيني عليــــكَ بــه | لو أن عينيَ تشكــو قبل ذاكَ عمــى
ما حطَّكَ الدهرُ لما حطّ مــن شــرفٍ | ولا تحيَّفَ مــن أخلاقِــكَ الكرَمــا
لُحْ في العُلا كوكباً إنْ لم تلُــحْ قمــراً | وقمْ بهــا ربــوةً إن لم تقــمْ علمــا
والله لو انصفَتْكَ الشهبُ لانكسَــفَتْ | ولو وفى لك دمعُ العــينِ لانســجما
أبكى حديثك حتى الدهر حــين غــدا | يحليكَ رهطــا وألفاظــاً ومبتســما

انتهى من وفياتِ الأعيانِ لابنِ خَلِّكان .

الخاتمة

وفي سنةِ خمسمِئةٍ مات السلطانُ يوسفُ بنُ تاشَفينَ رحمه الله تعالى ، وكان يُلَقَّبُ بأميرِ المسلمين وملكِ الملَثّمين ، وهو الذي سمّى أصحابَهُ المرابطين ، وهم قومٌ يتلثّمون ولا يكشفونَ وجوهَهم ، وتلكَ سنّةٌ لهم يتوارثونها خلفاً عن سَلَفٍ .

وسببُ اتخاذهمْ اللثامَ أنهم قومٌ من حمْيرٍ كانوا يتلثّمون لشدّةِ الحرِ والبردِ يفعُله الخواصُّ منهم ، ثم كثُرَ ذلك حتى صلو يفعلُهُ عامّتُهم.

وقيل في سببهِ إنّ قوماً من أعدائِهم كانوا يقصدونَ منازلَهم في حالِ غيابِهم عنها ، فيدخلونها ويأخذونَ المالَ والنساءَ ، فأشارَ عليهمْ بعضُ مشايخِهم أن يُبقوا النساءَ في زيّ الرجالِ إلى ناحيةٍ ما ، ويبقى الرجالُ في البيوتِ ملثّمين في زيّ النساءِ ، فإذا جاءهُمُ العدوُّ حسبوهمُ النساءَ فيخرجونَ عليهمْ ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسّيوفِ فقتلُوهم ، فمن أجلِ ذلك لزِمُوا اللثامَ تبرّكاً بما حصلَ لهم من الظّفرِ بالعدو .

وقيلَ : إنّ سببَ اللثامِ لهم أن طائفةً من لمتونةَ خَرجوا مغيرين على عدوٍّ لهم ، فخالفهمُ العدوُّ إلى بيوتِهم ، ولم يكنْ بها إلا الشيوخُ والصبيانُ والنساءُ ، فلما تحقّق الشيوخُ أن العدوَّ مغيرٌ عليهم ، أمرُوا النساءَ أن يلبسْنَ ثيابَ الرجالِ ويتلثّمْنَ ، ويضيقْنَهُ حتى لا يُعرفْنَ ، وبقيَ النساءُ في البيوتِ ، فلمّا أشرفَ العدوُّ رأى جمعاً عظيماً فظنَّه رجالاً وقالوا : هؤلاءِ عند حريمِهم يُقاتِلون عنهنَّ قتال الموتِ ، والرأيُ أن نسوقَ النّعمَ ونمضيَ ، فإنِ اتّبعونا قاتلْناهم خارجاً عن حريمِهم ، فبينما همْ في جمعِ النّعمِ من المراعي إذ أقبلَ رجالُ الحّي ، فبقي العدوُّ

بينهم وبين النساءِ ، فجعلُوا يقاتلونهم حتى أكثرُوا فيهمُ القتلَ ، وكان من قَبَلِ النساءِ أكثرَ .

فمن ذلك الوقتِ جعلوا اللثامَ سُنّةً يلازمونه ، فلا يُعرَفُ الشيخُ من الشابّ ، ولا يُزيلونه ليلاً ولا نهاراً ، ولذلك تسمَّوا بالملثّمين ، واللهُ أعلمُ .

ولقد قيلَ في اللثامِ :

قومٌ لهـــم دركُ العُـــلا في حِمْـــيَرِ	وإن انتحَوْا صنهاجةً فـــهمْ هـــمُ
لما حدَوا إحـــرازَ كـــلّ فضيلـــةٍ	غَلَبَ الحيـــاءُ عليـــهمُ فتلثّمـــوا

فلما ماتَ يوسفُ بنُ تاشفينَ رحمه الله تعالى ، قـــام بالملكِ بعده ابنُهُ أميرُ المسلمين عليُّ بنُ يوسفَ ، فسلكَ ســـننَ أبيه ، وكان بطلاً شجاعاً ، ونقياً عادلاً ، محباً لقتالِ العـــدوّ ، مجاهداً في سبيلِ اللهِ تعالى .

لقد أعلنَ عليُّ بنُ يوسفَ الجهادَ على عدوّهِ في الأندلسِ منـــذ أن تولّى الحكمَ ، حتى ثار عليه محمدُ بـــنُ تومـــرتَ الملقّـــبُ بالمهدي الذي أسَّسَ دولةَ الموحّدينِ ، فلم يزلْ يسعى في هـــدمِ

بنيانِ لمتونةَ إلى أن ماتَ ولكنّه لم يستطعْ السيطرةَ على عاصمتِهِم مراكشَ مع أنه ملكَ كثيراً من البلادِ .

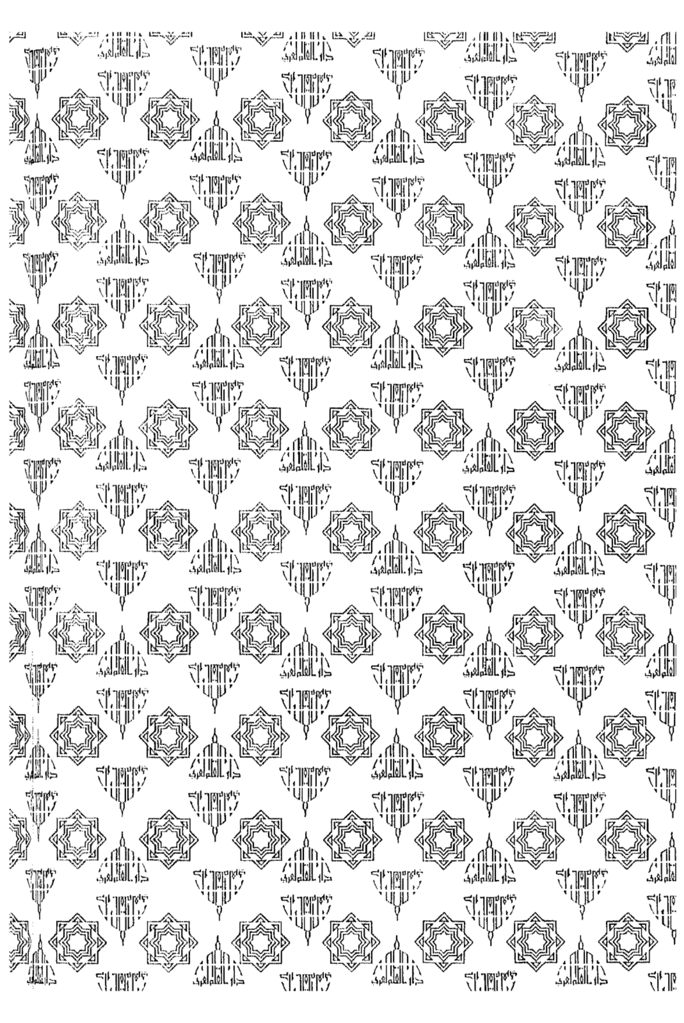
ثم أصبحَتْ بلادُ الأندلسِ مسرحاً لخلافاتٍ كثيرة ، وحروبٍ طاحنةٍ بين المسلمين أنفسِهِم تارةً ، وبينهم وبين الفرنجةِ تارةً أخرى .

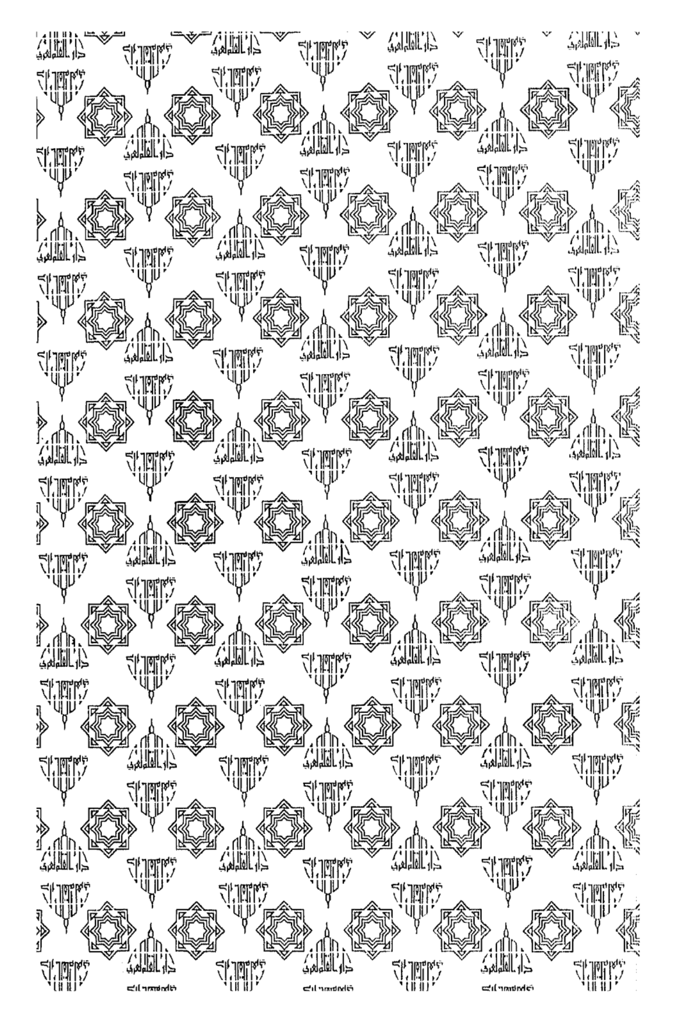
هذا وسوف نقفُ على هذه الأحداثِ في رسالتِنا التاليةِ إنْ شاء الله تعالى .

تمتِ الرسالة والحمد لله رب العالمين

وإلى اللقاء مع معركةٍ إسلاميةٍ أخرى .

(الفهرس)





معارك عربية إسلامية خالدة

للصغار واليافعين

١ - معركةُ ذي قــار
٢ - معاركةُ بــــدْر
٣ - معــركةُ أحُــــد
٤ - معــركةُ الخَــنْدقِ
٥ - معــركةُ حُــنَيْنٍ
٦ - معــركةُ اليــمَامةِ
٧ - معــركة الـــيرموكِ
٨ - معــركةُ الجــسْرِ
٩ - معــركةُ القَــادسيّةِ
١٠ - معــركةُ فتحِ المــدائنِ
١١ - معــركةُ نــهاَ ونـدْ
١٢ - معــركةُ فتحِ الأندلسِ
١٣ - معــركةُ بَلاطِ الشّهداءِ
١٤ - معــركةُ وادي الـحجارَةِ
١٥ - معــركةُ العــموريّـةَ
١٦ - معــركةُ الـــزلاّقةِ
١٧ - معــركةُ حِــطـينَ
١٨ - معــركةُ بيتِ المــقدِسِ
١٩ - معــركةُ عـــكّـا
٢٠ - معــركةُ عَيْنِ جــالوتَ

لم تكن الحربُ لدى العرب المسلمين غايةً لذاتها، وإنما كانت لردّ العا[...] الأخطار، ولإزاحة أولئك الذين يقفون في وجه الدعوة ويحولون دو[...] وهي معارك تشمل على بطولات وتضحيات وجود بالنفس (والجودُ ب[...] غاية الجود).

ودار القلم العربي للأطفال بحلب - إذ تنشر هذه الكتب - إنما تسعى [...] نفوس الأبناء حبَّ التضحيةِ والفداءِ، وحبَّ آبائهم الذين بذلوا دماء[...] شامخةً لايدنّسها مستعمرٌ غاشم.

والله من وراء القصد

الناشر

I.S.B.N: 1 - 5050 - 3

